

دراسات في
تاريخ المشرق الإسلامي

إعداد

الأستاذ الدكتور
صلاح سليم طابع
أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية
وعميد كلية الآداب بقنا
جامعة جنوب الوادي

كلية الآداب
قسم التاريخ

العام الجامعي

٢٠٢٢/٢٠٢١

دراسات في تاريخ المشرق الإسلامي
الأستاذ الدكتور: صلاح سليم طايغ
كلية: الآداب
قسم: التاريخ
الفرقة:
عدد الصفحات: صفحة
تاريخ النشر: ٢٠٢١

الرموز المستخدمة

نص للقراءة والدراسة



أنشطة ومهام



أسئلة للتفكير والتقييم الذاتي



فيديو للمشاهدة

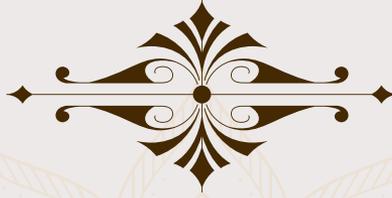


رابط خارجي



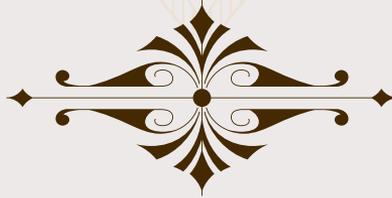
تواصل عبر مؤتمر الفيديو





دراسات في
تاريخ المشرق الإسلامي

الأستاذ الدكتور
صلاح سليم طايغ



المحتويات

٨	المقدمة
٩	الفصل الأول
٢٠	الحركات المذهبية الفدّامة
٢٣	تدريبات الفصل الأول
٥٢	الفصل الثاني
٥٣	المشرق الإسلامي قبيل قيام الدولة العباسية
٨٤	تدريبات الفصل الثاني
٨٥	الفصل الثالث
٨٤	الدول المستقلة في المشرق الإسلامي
٨٥	تدريبات الفصل الثالث
١٣٥	الفصل الرابع
١٤٩	الدولة الغزنوية والدولة السلجوقية
١٣٥	تدريبات الفصل الرابع
١٤٩	الفصل الخامس
١٤٩	الغزو المغولي وسقوط الخلافة العباسية
١٤٩	تدريبات الفصل الخامس

الصور والأشكال

١٢	شكل (١)
١٢	شكل (٢)
١٣	شكل (٣)
١٥	شكل (٤)
١٦	شكل (٥)
١٨	شكل (٦)
٢٠	شكل (٧)
٢١	شكل (٨)
٢٧	شكل (٩)

المحتويات

الصور والأشكال

٣٠	شكل (١٠)
٣١	شكل (١١)
٣٣	شكل (١٢)
٣٧	شكل (١٣)
٤٠	شكل (١٤)
٤١	شكل (١٥)
٤٢	شكل (١٦)
٤٣	شكل (١٧)
٤٧	شكل (١٨)
٥٠	شكل (١٩)
٥١	شكل (٢٠)
٥١	شكل (٢١)
٥٥	شكل (٢٢)
٥٧	شكل (٢٣)
٥٩	شكل (٢٤)
٦١	شكل (٢٥)
٦٢	شكل (٢٦)
٦٤	شكل (٢٧)
٦٩	شكل (٢٨)
٧١	شكل (٢٩)
٧٣	شكل (٣٠)
٧٤	شكل (٣١)
٧٨	شكل (٣٢)
٧٩	شكل (٣٣)
٨١	شكل (٣٤)
٨٧	شكل (٣٥)

الصور والأشكال

٨٨

.....

شكل (٣٦)

٨٩

.....

شكل (٣٧)

٩١

.....

شكل (٣٨)

٩٣

.....

شكل (٣٩)

٩٣

.....

شكل (٤٠)

٩٥

.....

شكل (٤١)

١٠١

.....

شكل (٤٢)

١٠٦

.....

شكل (٤٣)

١١١

.....

شكل (٤٤)

١١٦

.....

شكل (٤٥)

١٢١

.....

شكل (٤٦)

١٢٥

.....

شكل (٤٧)

١٢٧

.....

شكل (٤٨)

١٣١

.....

شكل (٤٩)

١٣٣

.....

شكل (٥٠)

١٣٨

.....

شكل (٥١)

١٤٢

.....

شكل (٥٢)

١٤٤

.....

شكل (٥٣)

١٤٦

.....

شكل (٥٤)



الفديو

١٣٧

.....

فديو (١)

١٤١

.....

فديو (٢)

١٤٧

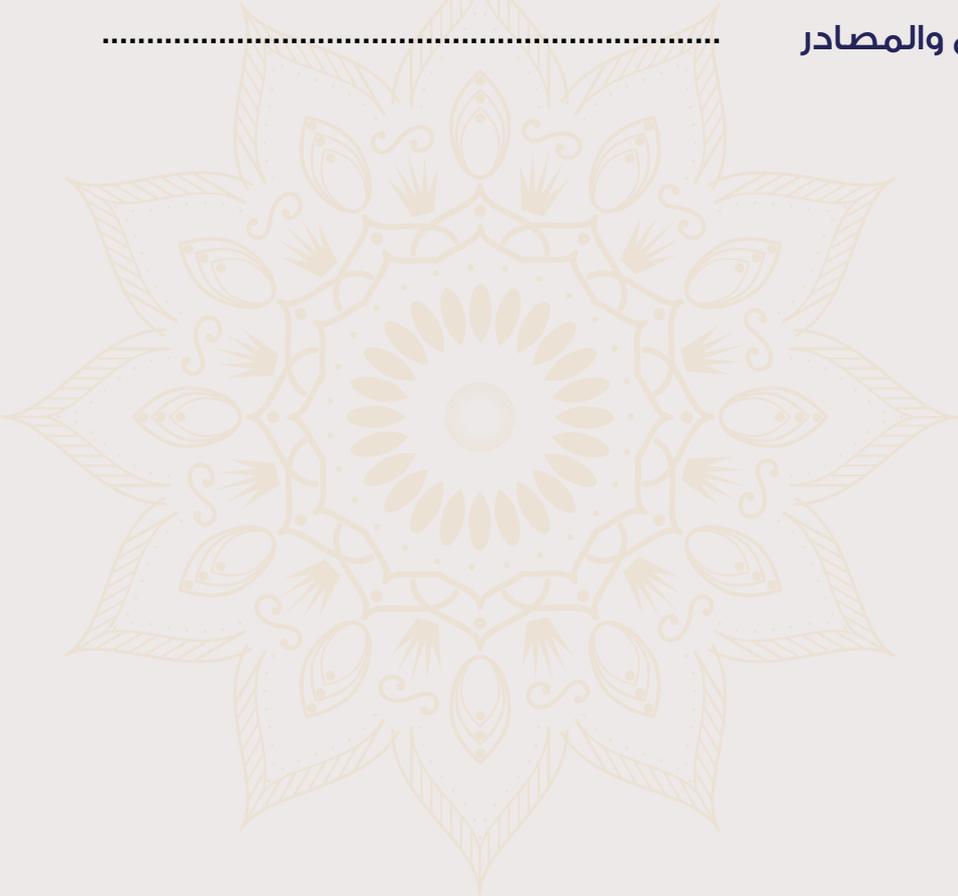
.....

فديو (٣)

١٥٠

.....

المراجع والمصادر



مقدمة



الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم النبيين وسيد المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. وبعد،،،
توفر على دراسة الدويلات المستقلة في المشرق الإسلامي عبر عصورها المختلفة عددٌ كبيرٌ من العلماء والباحثين، وقدموا لنا في هذا المجال أعمالاً لها قيمتها وأصالتها العملية، ورغم تعدد الدراسات وتنوعها ما بين مؤلفات وبحوث، إلا أنه لا تزال هناك حاجة إلى المزيد من المؤلفات والبحوث العربية في هذا المجال، مما دفعني إلى تأليف هذا الكتاب، تناولت فيه الدويلات المستقلة في المشرق الإسلامي.

وعرضت فيه تاريخ عددٍ من هذه الدويلات منذ ميلاد دولهم، وأهم الأحداث الداخلية والخارجية، وعلاقتهم بالخلافة العباسية، وعلى الرغم من الجهد المتواضع المبذول في هذا الكتاب.

هذا وقد بذلت في إخراج هذا الكتاب بهذه الصورة الجهد المضمّن، وأملّي أن أكون قد أفلحت في إعطاء العصر العباسي الأهمية التي يستحقها، سواءً ما يتعلق بجانبه السياسي، أو ما يتصل بجوانبه الحضارية.

وكما قال ابن خلدون في مقدمته: «إن غاية العمران هي الحضارة والترّف، وأنه إذا بلغ غايته، انقلب إلى الفساد، فينسى الناس عصر البداوة والخشونة كأن لم يكن، ويفقدون حلاوة العز والعصبيّة، بما هم فيه من ملكة القهر، ويبلغ فيهم الترف غايته بما تبنيه من النعيم ونضارة العيش، فيصيرون عيالاً على الدولة، ومن جملة النساء والولدان والمحتاجين للمدافعة عنهم، وتسقط العصبيّة بالجملة وينسون الحماية والمدافعة والمطالبة، فإذا جاء المطالب لهم لم يقاوموا مدافعتهم». وعسى أن أكون قد أحرزت بعض النجاح، وآمل من الله العليّ القدير أن يمن عليّ بنعمة الصحة والعافية، وأن ينال هذا الكتاب رضا الله ورضا الجميع.

والله وليّ التوفيق،،،

أ.د. صلاح سليم طابع
عميد كلية الآداب بقنا
جامعة جنوب الوادي



الفصل الأول
الحركات المذهبية الفدائية





الفصل الأول

الحركات المذهبية الهدامة

الأهداف:

عزيزي الطالب .. بعد الإنتهاء من دراسة هذا الفصل ينبغي عليك أن تكون قادراً على أن:

- (١) تتعرف على أهم الحركات الدينية الهدامة في العصر العباسي الأول.
- (٢) تشرح جهود الخلفاء العباسيون في القضاء على الزندقة.
- (٣) توضح أثر إنتشار الزندقة في العصر العباسي الأول.



مقدمة:

قامت في العصر العباسي الأول العديد من الحركات الدينية، التي حاول زعمائها إحياء نحل وديانات وثنية قديمة، بهدف نشر الإلحاد والرذيلة بين الناس، وقتل روح الإيمان بالدين الإسلامي، مما هدد الدولة العباسية واستقرارها، إلا أن الخلفاء العباسيين قد وقفوا موقفاً حازماً من هذه الحركات، وتصدوا لها بكل حزم وقوة، وجردوا إليها الحملة تلو الحملة، محاولين التخلص منها والقضاء عليها، ومن أهم هذه الحركات الدينية الهدامة:

حركة الزنادقة:

انتشرت حركة الزنادقة في العصر العباسي الأول، وكانت من أشد الحركات التي أصابت الأمة الإسلامية وأخطرها، وكان أغلب الزنادقة الذي ظهوروا في هذا العصر من بلاد فارس، مما يدل على أن إسلامهم كان ظاهرياً فقط، وأنهم ظلوا على عقائدهم القديمة، محاولين إعلانها كُلمًا أتاحت لهم الفرصة لذلك، فانتشرت الزنادقة حتى وصلت بيوت الوزراء وكبار رجال الدولة، إلا أن الخلفاء العباسيين قد تصدوا لتلك الحركة بكل جدٍ وعزيمة، محاولين القضاء عليها لإدراكهم مدى الخطورة التي تكمن في نفوس هؤلاء الزنادقة على مستقبل الدولة الإسلامية والدين الإسلامي الحنيف.

وقد ظهرت الزنادقة بصورة واضحة في عهد الخليفة المهدي العباسي الذي حمل على عاتقه القضاء عليها بالحوار تارةً وبالقتل تارةً أخرى، يقول المسعودي: «وأمعن المهدي في قتل الملحدين والمداهنين عن الدين في أيامه، وإعلانهم باعتقاداتهم في خلافته لَمَّا انتشر من كتب ابن ديسان ومريقيون مِمَّا نقله عبدالله بن المقفّع وغيره، وترجمت من الفارسيّة والفهلوية إلى العربيّة، وما صنفه في ذلك ابن أبي العرجاء عجرد ويحيى بن زياد وطيغ بن إياس من تأييد المذاهب اللمانية والمرقيونية فكثُر بذلك الزنادقة، وظهرت أراؤهم في النَّاس، وكان المهدي أول من أمر الجدليين من أهل البحث بتصنيف الكتب على الملحدين مِمَّن ذكرنا من المجاحدين وغيرهم، وأقاموا البراهين إلى المعاندين، وأزالوا شبه الملحدين». وكان الخليفة المهدي أول من نظَّم إدارة مهمتها تتبع الزنادقة وقتلهم، على رأسها صاحب الزنادقة، وأول من تولى هذه الوظيفة عمر، ولَمَّا توفي سنة ١٦٨ هـ / ٧٨٥م، عين بدلاً منه مُحَمَّد بن عيسى بن حمدويه، كما أن المهدي أعد هيئة علمية لمناظرة الزنادقة، وأوصى بتأليف الكتب للرد عليهم وحججهم، وتعريف النَّاس بخطورتهم وآرائهم الهدامة على الإسلام والمسلمين. وظل الخليفة المهدي طول فترة حكمه يتتبع الزنادقة محاولاً القضاء عليهم، ففي سنة (١٦٧ هـ / ٧٨٤م) جدَّ في طلبهم والبحث عنهم في الآفاق



وكان من بين من اتهم بالزندقة في عهد المهدي بشار بن بُرد^(١) الذي دفع به إلى صاحب الزندقة حدوه، وقال له: اضربه ضرب التلف، وكذلك صالح ابن عبدالقُدوس البصري^(٢) الذي كان مشهوراً بالزندقة، وله مع أبي الهذيل العلاف مناظرات فقد أمر المهدي به فحبس ثم قُتل.

وقد بلغ من شدة حرص المهدي على القضاء على الزنادقة أن يوصي ولي عهده الهادي بتعقبهم وتخليص الأمة الإسلامية من شرورهم الهدامة، ولما توفي الخليفة المهدي وتولى الهادي سنة (١٦٩هـ / ٧٨٥م) سار على وصية أبيه، وشمر عن ساعديه لتعقب هؤلاء الزنادقة المفسدين حتى أنه قال: «أما لنن عشت لأقتلن هذه الفرقة كلها حتى لا أترك منها شيئاً».



شكل (٢) بشار بن بُرد



شكل (١) الخليفة المهدي العباسي

(١) بشار بن بُرد (ت ١٦٧هـ / ٧٨٤م) العُقيلي بالولاء، أبو معاذ: أشعر المولدين على الإطلاق. أصله من طخارستان ونسبته إلى امرأة (عُقيلية) قيل إنها اعتقتة من الرق، وكان ضريباً، نشأ في البصرة وقدم بَعْدَ، واتهم بالزندقة فمات ضرباً بالسياط، ودُفِنَ بالبصرة، وكانت عادته إذا أراد أن ينشد أو يتكلم أن يتقل عن يمينه وشماله ويصفق بإحدى يديه على الأخرى. الزركلي: الأعلام، ج ٢، ص ٥٢.

(٢) ابن عبدالقُدوس (ت نحو ١٦٠هـ / ٧٧٧م): صالح بن عبدالقُدوس بن عبدالله بن عبدالقُدوس الأزدي الجذامي، أبو الفضل: شاعر حكيم كان متكلماً يعظ الناس في البصرة. وشعره كله أمثال وحكم وآداب، اتهم عند المهدي بالزندقة، فقتله ببغداد. الزركلي: الأعلام، ج ٣، ص ١٩٢، ١٩٣.

واشتد الخليفة الهادي في طلبهم فقتل منهم جماعة، فكان ممن قتل يزدان بن كاتب يقطين وابنه علي، ويقال إن الهادي قد أمر أن يهيا له ألف جذع لصلب الزنادقة إلا أنه توفي، وكذلك فعل هارون الرشيد بعد توليه الخلافة سنة (١٧٠ هـ / ٧٨٦ م)، فقد طود الزنادقة ولم يتهاون في أمرهم، وكان يمتحن كل من تحوم حوله الشبهات بالزندقة ويعاقب من تثبت عليه أشد عقوبة.

ولما تولى المأمون سنة (١٩٨ هـ / ٨١٤ م) اهتم بالقضاء على الزنادقة، فقد بلغه خبر عشرة من الزنادقة من أهل البصرة يذهبون إلى قوم ماني ويقولون بالنور والظلمة فأمر بحملهم إليه، فكان يدعوهم رجلاً رجلاً ويسألهم عن دينهم فيخبرونه الإسلام، فيمتحنهم بأن لهم صورة ماني ويأمرهم أن يتقلوا عليها، ويأمرهم بذبح طائر الدراج فإن أبوا ذلك قتلهم.

وقد أدى انتشار الزندقة إلى نشاط الحركة الأدبية والعلمية، فقد كان للزندقة كتب وأشعار كثيرة، فإذا ألقى الشعراء قصائد زندقة، رد عليهم بردود تحض حججهم، حيث برزت فئة كبيرة من مفكري وأدباء العصر العباسي الأول للتصدي لهم، فنشأ علم الكلام، وجاء في مقدمة من وقف أمامهم ابن هذيل العلاف وله مناظرات عديدة مع الزنادقة.



شكل (٣) الخليفة المأمون

حركة المُقْتَعِ الخُرَّاساني:

وهي من الحركات الهدامة التي ظهرت في العصر العباسي الأول في عهد المهدي، وترجمها رجلٌ من أهل خراسان من مَرُو الرُّوذ^(١) يدعى: الخُرَّاساني، وذلك بعد مقتل أبي مُسَلِّم الخُرَّاساني، وقد لُقِّبَ بالمُقْتَعِ لأنه اتخذ قناعاً من الذهب، ليخفي به وجهه لقبه، حيث كان أعوراً مشوه الخلق.

وقد قال الشَّهْرَسْتَانِي (ت ٥٤٨ / ١١٥٣م): أن المُقْتَعِ الخُرَّاساني من فرقة الرزامية وهي فرقة راوندية قدست أبا مُسَلِّم الخُرَّاساني، وقالت بإمامته، وادعت حلول الإله فيه، حيث كان في بداية أمره على هذا المذهب ثم ادعى الإلوهية، وتابعه مبيضة ما وراء النَّهْر.

واعتنق المُقْتَعِ فكرة تناسخ الأرواح فكان يقول: إنه هو الإله، وأنه كان قد تصور مرّة في صورة آدم 7، ثم تصور في وقت آخر بصورة نوح 7، وفي وقت آخر بصورة إبراهيم 7، ثم تردد في صورة الأنبياء إلى سيدنا مُحَمَّد 6، ثم تصور بعده في صورة الإمام علي 2، وانتقل بعد ذلك في صور أولاده، ثم تصور بعد ذلك في صورة أبي مُسَلِّم الخُرَّاساني، ثم تحول إلى هاشم.

وقد زعم لاتباعه إنه إنما انتقل في الصور لأن النَّاس لا يطيقون رؤيته في صورته التي هو عليها، ومن رآه احترق بنوره، كما أظهر قمراً يطلع ويراه النَّاس على مسيرة شهرين ثم يأفل، وأباح المُقْتَعِ لاتباعه المُحَرَّمَات، وحرّم عليهم القول بالتحريم، وأسقط عنهم الصَّلَاة والصِّيَام وسائر العبادات.

واستطاع المُقْتَعِ الخُرَّاساني أن يصبغ صفة الغموض والقدسية على شخصيته، وتمكّن من تحقيق ذلك بالخطوات التالية:

(١) اتخاذ القناع، وذلك لسببين ظاهري وجوهري، فالظاهر هو إخفاء عيوب وجهه، أمّا الجوهري فهو إضفاء الغموض والسريّة على شخصه ليزيد تعلق النَّاس به فيكثر أتباعه.

(٢) استخدامه السحر والتنجيم، وذلك بإظهاره القمر، فاعتقد كثير من العوام بأن ذلك دليل على قدرته وعظمته فمالت قلوبهم إليه.

(٣) زعمه من رآه احترق بنوره، فلمّا أصر جماعة من أتباعه على رؤيته سلط

(١) مَرُو الرُّوذ: المرو: الحجارة البيض تقتدح بها النَّار، ولا يكون أسود ولا أحمر ولا تقتدح بالحجر الأحمر ولا يسمى مرواً، والرُّوذ بالفارسية النَّهْر، فكانه مرو النَّهْر: وهي مدينة قريبة من مرو الشاهجان بينهما خمسة أيام، وهي على نهر عظيم، فلها سميت بذلك. الحموي: مُعْجَم البُلْدَان، ج ٥، ص ١١٢.

المُقْتَع عليهم المرايا التي عكست أشعة الشَّمْس البرَّاقَة فَخَرَّوْا له ساجدين. (٤) كما أن المُقْتَع لم يظهر لرسول قائد الجيش العَبَّاسي، وإنما ناداه من وراء الحجاب مؤكداً بذلك أنه فوق البشر.

وقد عظم أمر المُقْتَع الخُرَّاساني وكثر أتباعه، واعتصم بقلعة حصينة بـ«كش»، ومحاطة بخندق عظيم، وأخذ يغير على النّوَّاحي المجاورة ويستولي على أموال المسلمين، وتغلب على بعض الحصون والقلاع، وازداد خطره على الدّولة العَبَّاسيَّة، فوجه إليه الخليفة المَهْدِي جبرائيل بن يحيى وأخاه يزيد، فدخلا معه في قتالٍ مرير، إلا أنهما لم يستطيعا القضاء عليه، وقاوم أتباع المُقْتَع الخُرَّاساني جيش الخلافة بكل إصرارٍ وانتصروا عليه.

فثار الخليفة العَبَّاسي المَهْدِي لذلك، وأعد جيشاً كبيراً لقهراً المُقْتَع الخُرَّاساني، وجعل على رأسه سعيد بن عمرو الحرَّشي (ت بعد ١١٢ هـ / بعد ٧٣٠ م) (١) قائداً عاماً مع عدد من القادة العسكريين، فتوجه الحرَّشي إلى القلعة التي اعتصم بها المُقْتَع (٢)، واتخذ من الحديد والخشب مائتي سلم ليضعها على عرض الخندق، وشدد الحصار على المُقْتَع ممَّا اضطر كثير من أصحابه إلى الاستسلام، فبقي مع قلة من أتباعه.



شكل (٤) المُقْتَع الخُرَّاساني

(١) سعيد بن عمرو الحرَّشي: قائد، من الولاة الشجعان. من أهل الشَّام. وهو الذي قتل شوذب الخارجي، وفتك بمن معه، سنة ١٠١ هـ وولاه ابن هبيرة خُرَّاسان سنة ١٠٣ هـ، ثم بلغ ابن هبيرة أنه يكاتب الخليفة ولا يعترف بإمارته، فعزله وسجنه، ثم أخرجه خالد القسري وأكرمه، فعاد إلى الشَّام، فولاه هشام غزو الخزر سنة ١١٢ هـ، فرحل إلى أرمينية، ثم أمره هشام بالعودة إليه، فعاد. قال ابن حزم: ولده بإزمينية، وكان تقياً بطلاً وصفه ابن هبيرة بفارس قيس، نسبته إلى الحريش بن كعب بن ربيعة. الزُّركلي: الأعلام، ج ٣، ص ٩٩.

(٢) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، ص ٤٣٧.



فلَمَّا وصل المسلمون إلى الخندق واقترَبوا من السُّورِ، أيقن المُقَتِّعُ بالهلاكِ وذلك في سنة ١٦٣ هـ / ٧٨٠ م، فأضرم ناراً عظيمة في جميع ما بالقلعة من دابةٍ وثوبٍ ومَتاعٍ وقال: من أُجِبْ منكم ارتفع معي إلى السَّمَاءِ فليُلْقِ نفسه في هذه النَّارِ، فألقى بِنفسه فتبعه أهله، وقيل إنه شرب سماً وسقى نساؤه فهلكوا جميعاً، ودخل عسكر المَهديِّ القلعة فوجدوها خالية.

وتشير بعض المصادر إلى أن موته لم يقض تماماً على مبادئه، وإنما اعتنقها أهالي ما وراء النَّهْرِ، وخاصَّة العوام والضعفاء من النَّاسِ.



شكل (٥) حركة المقتع الخراساني

حركة بابك الخرمي:

اعتنق أنصارها فكرة القضاء على الدين الإسلامي والتخلص من الخلافة العباسية، وإحياء دولة الفرس المجوسية، وقد ترأس هذه الحركة بابك الخرمي، وذلك بعد وفاة مؤسسها جاويدان، حيث أن زوجة جاويدان قد جمعت أتباعه، وادعت أن زوجها قال قبل وفاته: «إني أريد أن أموت في هذه الليلة، وأن روعي تخرج من بدني وتدخل في بدن بابك وتشترك مع روحه، وأنه سيبلغ بنفسه، وبكم يبلغ أمراً لم يبلغه أحد، وأنه يملك الأرض، ويقتل الجبابرة، ويرد المزدكية، ويعز بعاليكم، ويرفع به وضعكم».

وكانت أهم مبادئ الخرمية من الأباطيل الضالة والمضلة، الإيمان بتناسخ الأرواح، والزعم أن الرسل كلهم على اختلاف شرائعهم وأديانهم يحصلون على روح واحدة، وأن الوحي لا ينقطع أبداً، وكذلك الإجماع على القول بالرجعة، وإباحة النساء، وسائر الشهوات.

وقد كانت بداية ظهور بابك الخرمي في سنة ٢٠١ هـ / ٨١٧ م في بلاد أذربيجان^(١) والتي اتخذها مقراً له، وأخذ ينشر تعاليمه فيها، واستخدم كل وسائل الإقناع، فكثر أتباعه، وصبغوا ثيابهم باللون الأحمر، واتخذوه شعاراً لهم، وازداد خطره، وشن الغارات على القرى المجاورة، فنهب وسلب، وألحق بالبلاد الخراب.

فلما رأى الخليفة المأمون تزايد خطره اشتد في ملاحظته، وأرسل إليه في سنة ٢٠١ هـ / ٨١٩ م جيشاً بقيادة يحيى بن معاذ (ت ٢٠٦ هـ)^(٢) إلا أنه لم يظفر به، فاتخذ المأمون خطوة أخرى في سنة ٢٠٥ هـ / ٨٢٠ م وذلك بتوليته والياً جديداً حازماً في بلاد إرمينية وأذربيجان وهو عيسى بن محمد بن أبي خالد وعهد إليه ببابك الخرمي، إلا أن بابك انتصر عليه.

وتوسعت حركة بابك الخرمي، وأصبحت تشكل خطراً كبيراً على الدولة العباسية، فلم يتوان الخليفة المأمون في قتاله، فأخذ يرسل إليه الجيش تلو الآخر محاولاً القضاء عليه، إلا أن النصر كان حليف بابك، فقد تمكن من هزيمة جيش الخلافة في سنة ٢٠٩ هـ / ٨٢٤ م بقيادة علي بن صدقة، وفي سنة ٢١٤ هـ / ٨٢٩ م بقيادة

(١) أذربيجان: جمهورية إسلامية، تقع غربي بحر قزوين، يحدها من الغرب جمهورية أرمينيا، ومن الشمال الغربي جمهورية جورجيا، ومن الشمال داغستان، ومن الجنوب إيران، وكلمة أذربيجان فارسية الأصل، وتعني أرض النار؛ لكثرة معابد النار التي كانت قائمة فيها قبل الإسلام. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج ٤، ص ١٣.

(٢) يحيى بن معاذ: متولّي الجزيرة، كان من كبار قواد المأمون، تُوفي سنة ست ومانتين. الذهبي: تاريخ الإسلام، ج ٥، ص ٢٢٧.

مُحَمَّدُ بْنُ حُمَيْدِ الطُّوسِيِّ^(١)، الذي فاجأه بَابِكُ مِنْ مِضَالِقِ الْجِبَالِ وَمِنْ كُلِّ وَجْهِ فانهزم جيشه وقتل ابن حُمَيْدٍ. وظل هذا الثَّائِرُ معْتَصِماً بِجِبَالِ أذربيجان، ولم يتمكن الخليفة المأمون من القضاء على حركته، فلَمَّا مَرَضَ مَرَضَ موته أوصى أخاه وولي عهده المَعْتَصِمَ بِملاحقة الخُرَمِيَّةِ، وبذل كل ما في وسعه للقضاء عليهم.



شكل (٦) حركة بابك الخرمي

(١) مُحَمَّدُ بْنُ حُمَيْدِ الطُّوسِيِّ الأَمِيرِ: كَانَ مَقْدَمَ الْجَيْشِ الَّذِينَ حَارَبُوا بَابِكَ الخُرَمِيِّ، فَقُتِلَ إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ وَعَقُوه، فَوَلَّى بَعْدَهُ عَلَى الْجَيْوشِ عَلِيُّ بْنُ هِشَامٍ، إِلَى أَنْ قُتِلَ أَيْضاً فِي قِتَالِ الخُرَمِيَّةِ سَنَةَ سَبْعِ عَشْرَةَ، وَكَانَ مَقْتَلُ مُحَمَّدٍ فِي سَنَةِ أَرْبَعِ عَشْرَةَ. الذَّهَبِيُّ: تَارِيخُ الْإِسْلَامِ، ج ٥، ص ٤٣٥.

فَلَمَّا تولى الْمُعْتَصِمُ الخِلافةَ في سنة ٥٢١٨ / ٨٣٣م كانت جماعةً كبيرةً من أهل الجبال من همدان وأصبهان وماسبدان (١) ومهرجان (٢) قد اعتنقت الخرمية وعسكروا في عمل همدان، فاستعد الخليفة المعتصم بكل قواته لمحاربة الخرمية والقضاء عليها، فأرسل في السنة التي تولى فيها جيشاً بقيادة إسحاق بن إبراهيم بن مُصعب، الذي تمكن من قتل ستين ألفاً في همدان وهرب الباقون إلى الروم. ثم وجّه الخليفة المعتصم سنة ٥٢٢٠ / ٨٣٥م أكبر قواده الأفشين (ت ٥٢٢٦ / ٨٤١م) لحرب الخرمية، وعقد له على الجبال وأمدّه بالمال والنققات اللازمة، ووجه المعتصم أباسعيد مُحمّد بن يوسف إلى أردبيل (٣)، وأمره أن يبني الحصون التي خربها بابك فيما بين زنجان (٤) وأردبيل، ويجعل فيها الرجال لوصول المؤمن إلى أردبيل ففعل أبوسعيد ذلك.

فتقدم القائد الأفشين حتى نزل رود الرُود وخذق في ثلاثة جبال مطلة على البذر، وعبأ أصحابه وأمر كل منهم بلزوم موضعه، وبنى سوراً ووضع الكمان، وزحف إلى البذر في يوم الخميس لتسع خلون من رمضان سنة ٥٢٢٢هـ، وأحرق قصور

(١) ماسبدان: منطقة تقع شمالي الأهواز إلى الغرب على حدود العراق، وأهم مڈنها (السيروان) و(الصميرة).

(٢) مهرجان: معناه بالفارسية فرح النفس، قد يسقط من الكورة المذكورة أنفاً فدق فيقال مهرجان فقط، قال أبوسعد: مهرجان قرية بأسفرايين لقبها بذلك كسرى قباذ بن فيروز والد كسرى أنوشروان لحسنها وخضرتها وصحة هوانها، ينسب إليها جماعة من العلماء، منهم: أبوبكر مُحمّد بن عبدالله بن مهدي المهرجاني النيسابوري، سمع مُحمّد بن يحيى الذهلي ومُحمّد بن رجاء وعمر بن شبة وأبا سعيد الأشج وغيرهم، روى عنه أبو علي الحافظ وغيره، ومهرجان: قرية بين أصبهان وطبس كبيرة بها جامع وقد خربت. الحموي: مُعجم البُلدان، ج ٥، ص ٢٣٣

(٣) أردبيل: مدينة بأذربيجان حصينة طيبة التربة، عذبة الماء، لطيفة الهواء، في ظاهرها وباطنها أنهار كثيرة، ومع ذلك فليس بها شيء من الأشجار التي لها فاكهة، والمدينة في فضاءٍ فسيحٍ وأحاط بجميع ذلك الفضاء الجبال بينها وبين المدينة من كل صوب مسيرة يوم. القزويني: آثار البلاد، ص ٢٩١.

(٤) زنجان: مدينة في خراسان، بينها وبين النهر خمسة عشر فرسخاً. قالوا: أذربيجان وقزوین وزنجان كور تلي الجبل من بلاد العراق وتلي كور إرمينية من جهة المغرب، وهي تلي الزعفرانية في الجبل، بينها وبين همدان ثلاثة فراسخ، سميت بذلك لأن بها زعفراناً كثيراً، وزنجان كورة واسعة وهي أكبر من أبهر، وأهل أبهر أحذق وأنبل طباعاً، غير أن زنجان يغلب على أهلها الغفلة. الحميري: الروض المغطر، ص ٢٩٤.



وعمل الأفشين على إضعاف جاسوسية بابك بأن أخذ يكرم كل من يقع في يده من جواسيس بابك، ويضاعف له في العطاء ويضمه إلى جواسيسه، وحدث بين الأفشين وبابك الحُرْمِي وقائع قتل فيها طوخان أكبر قواد بابك، وعزم الأفشين على الدنو من البَذ (١)، فرحل من كَلان رُوذ (٢)، وأخذ يتقدم ببطء من الكمان التي نصبها بابك، وكان المُعْتَصِم قد كتب إلى الأفشين يأمره أن يجعل النَّاس نواب يقفون على ظهور الخيل، كما يدور العسكر في اللَّيْل ليكونوا على استعداد تام مخافة البيان.

فتقدم القائد الأفشين حتى نزل رُوذ الرُّوذ وخندق في ثلاثة جبال مطلة على البَذ، وعبأ أصحابه وأمر كل منهم بلزوم موضعه، وبنى سوراً ووضع الكمان، وزحف إلى البَذ في يوم الخميس لتسع خَلُون من رمضان سنة ٢٢٢هـ، وأحرق قصور بابك وأخرج من كان بالبَذ من أسارى المسلمين، أمّا من تمكن من الهرب، فكتب القائد الأفشين إلى ملوك إزمينية يخبرهم بهروبهم وأصحابه، ويأمرهم بمراقبة



شكل (٧) الخليفة المُعْتَصِم

(١) البَذ: موضع جبلي بين أذربيجان وأران ويعرف أيضا باسم (بذان).

(٢) لأن رُوذ: معناه النَّهْر الكبير: وهو بأذربيجان قريب من البَذ. الحَمَوِي: مُعْجَم البُلْدَان، ج ٤، ص ٤٧٥.

نواحيهم، وأن يأخذوا من مر بهم، حتى وقع بابك في يد البطريك سهل بن سنباط فسلمه، فأمر القائد الأفشين له بألف ألف - مليون - درهم، ومنطقة معركة الجواهر، وتاج الطريقة.

وقد سار الأفشين إلى سامراء في صفر ٢٢٣ هـ ومعه بابك، فلمّا حضر بين يدي المعتصم أمر بقتله، وبعث برأسه إلى خراسان وطلب بدنه بسامراء^(١). وهكذا أظهر المعتصم همة عالية في التصدي لحركة بابك الخرمي، والتي تعتبر من أخطر الحركات التي واجهتها الدولة العباسية قبل أن يستفحل خطرها في بلاد المسلمين.

وهكذا نرى أن الخلفاء العباسيون بذلوا قصارى جهدهم لتتبع هذه الحركات والقضاء عليها، وقد نجحوا في ذلك إلى حد بعيد، ولم يفسحوا المجال لمثل هذه الحركات الهدامة أن تنمو وتنتشر في العالم الإسلامي، والتي كانت تحمل مظاهر توافرت فيها وهي:

- (١) حقدّها الدّفين على العرب.
- (٢) حربها على الإسلام ومحاولة تشويهه مبادئه.



شكل (٨) الخليفة المعتصم يقاتل بابك الخرمي

(١) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة بن خياط، ص ٤٧٧.



تدريبات الفصل الأول



حدد صواب أو خطأ العبارة التالية:

(١) اعتنق المقنع الخرساني فكرة استنساخ الأرواح:

صواب

خطأ

(٢) اعتنقت حركة بابك الخرمي فكرة إحياء دولة الفرس في المجوسية:

صواب

خطأ

اختر الإجابة الصحيحة مما يلي:

(٣) تصدى الخليفة العباسي لحركة بابك الخرمي:

المهدي

المعتصم

المأمون

(٤) ظهرت الزندقة بصورة واضحة في عهد الخليفة:

المهدي

المعتصم

المأمون





الفصل الثاني

المشرق الإسلامي قبيل قيام الدولة العباسية





الفصل الثاني

المشرق الإسلامي قبيل قيام الدولة العباسية

الأهداف:

عزيزي الطالب .. بعد الإنتهاء من دراسة هذا الفصل ينبغي عليك أن تكون قادراً على أن:



- (١) توضح صورة المشرق الإسلامي قبل قيام الدولة العباسية.
- (٢) تعدد خطوات فتح قتيبة بن مسلم لبلاد ما وراء النهر.
- (٣) تلخص مراحل الفتح الذي قام بها محمد بن القاسم.
- (٤) تشرح عوامل ضعف الخلافة العباسية.

مقدمة:

شملت الجبهة الشرقية للدولة الإسلامية المناطق الواقعة شرق العراق، وقد اتسمت الأمم التي كانت تقطن تلك المناطق بالتعدد جنساً وحضارة، وإن انفقت جميعها في الوثنية، وكان المسلمون حتى خلافة عثمان 2 قد أتموا فتح البلاد التي تقع بين العراق ونهر «جِيحُون» (١) وهو نهر آموداريا الذي يقع الآن على الحدود بين تركمانستان وأزبكستان - أي كل أقاليم دولة إيران الساسانية، وتضم منطقة: «الجبال» و«الرّي» (٢) و«جُرْجَان» (٣)

(١) جِيحُون: سمي بذلك لاجتياحه الأرضين، وأصل جِيحُون بالفارسية هرون، وهو اسم وادي خُرَاسَان على وسط مدينة يُقال لها: جيهان فنسبه النَّاس إليها وقالوا جِيحُون على عادتهم في قلب الألفاظ. الحَمَوِي: مُعْجَم البُلْدَان، ج ٢، ص ١٩٦.

(٢) الرّي: كورة معروفة تنسب إلى الجبل وليست منه بل هي أقرب إلى خُرَاسَان، وهي بقرب دنباوند وطِيرِسْتَان وقومس وجرْجَان. الحَمِيرِي: الرُّوض المِعْطَار في خبر الأقطار، ص ٢٧٨.

(٣) جُرْجَان: على نهر الديلم، افتتحها سعيد بن عُثْمَان في ولاية مُعَاوِيَةَ، ثم ارتد أهلها عن الإسلام حتى افتتحها يزيد بن المُهَلَّب في ولاية سُلَيْمَان بن عبدالمك بن مَرْوَانَ. وخراج البلد عشرة آلاف ألف درهم، وفيه يعمل جيد الخشب من الخلنج وغيره وأصناف ثياب الحرير، وبه الإبل البخاتي العظام، وبأرض جُرْجَان النخل الكثير. البيهقي: البُلْدَان، ص ٩٢.

و«طَبْرِسْتَان» (١) و«قُوهِسْتَان» (٢) و«خُرَاسَان» (٣) و«فارس» و«كَرْمَان» (٤) و«مُكْرَان» (٥) و«سجستان» (٦)

- (١) طَبْرِسْتَان: اسمٌ يُطلق على الإقليم الذي يقع جنوبي بحر قَزْوِين، ويشمل المنطقة الجبلية التي تمثلها جبال البورز، وهو الإقليم الذي يُعرف اليوم باسم ولاية مازندران، وهو أحد الأقسام الإدارية لإيران المعاصرة، وعاصمته بابل، وهي ميناء صغير يُطل على بحر قَزْوِين إلى الغرب من ميناء ساري.
- (٢) قُوهِسْتَان: تعريب كوهستان، يعنى موضع الجبال. وأمَّا المشهورة بهذا الاسم فأحد أطرافها متصل بنواحي هُرَاة، ويمتد في الجبال طويلاً حتى يتصل بقرب نهاوند وهمذان وبروجرد، وهذه جبال تسمى كلها بهذا الاسم بين هُرَاة ونيسابور، وقصبتها قاين. البغدادي: مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ج ٣، ص ١١٣٥.
- (٣) خُرَاسَان: تتقاسمها اليوم إيران الشرقية الشمالية وأفغانستان وتركمانيا. من أهم المُدن بها: مَرُو ونيسابور وبلخ وهُرَاة وخوارزم وجرجان وطَبْرِسْتَان وأصْبَهَان وسرخس وكابل وقنجر. فتحها الأحنف بن قيس في عهد عُمر بن الخطَّاب 2 سنة ١٨هـ.
- (٤) كَرْمَان: ولاية كبيرة بإيران. يحدها من الشرق مُكْرَان ومن الغرب فارس، ومن الشمال خُرَاسَان، ومن الجنوب بحر فارس، وتشتهر بالزراعة والماشية وصناعة السِّجَاد والأدوات النُّحاسية.
- (٥) مُكْرَان: ولاية واسعة تشتمل على مُدن وفَرَى، غربيها كَرْمَان، وسجستان شماليها، والبحر جنوبيها. البغدادي: مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ج ٣، ص ١٣٠١، ١٣٠٢.
- (٦) سجستان: مدينة تاريخية يُعرف بها الإقليم الذي يشمل القسم الجنوبي والشرقي من أفغانستان. ويحدها من الشمال إقليم خُرَاسَان، ويفصلها عن البحر إقليم مُكْرَان، وعاصمتها هي زرنج. وقد فتح المسلمون زرنج سنة ٣٠هـ.



فَلَمَّا اسْتُشْهِدَ عُمَانُ بْنُ عَفَانَ 2 ووقعت الفتنة تعثرت الفتوح، خرج أهل هذه البلاد عن الطاعة، حتى إذا التأمّت جماعة المسلمين أخذت الدولة الأموية تبذل جهوداً بالغة لإعادة البلاد المفتوحة إلى الطاعة، وكانت مهمة معاوية بن أبي سفيان 2 العاجلة في الشرق فور توليه الخلافة هي تدعيم القوة الإسلامية، وإعادة توطيد أقدام المسلمين هناك.

وقد نجحت الدولة الإسلامية في عهد معاوية بن أبي سفيان 2 في فتح معظم مناطق إقليم خراسان على يد أميرها عبيدالله بن زياد، وكان معاوية قد ولاه البصرة والكوفة سنة ٥٣-٥٩هـ / ٦٧٢-٦٧٨م، وعمّل هذا الأمير على مد حركة الفتح إلى بلاد ما وراء النهر (١)، وغزا كل من بيكند (٢) وبخارى (٣) من بلاد الصغد (٤)، واضطرهما إلى دفع الجزية، ثم وقف راجعاً إلى البصرة.

ويبدو أنه أقدم على عبور نهر جيحون إلى ما وراءه من البلاد بعد أن أسلمت خراسان قيادتها للمسلمين وعزّ فيها الإسلام، وقد كانت هذه الفتوحات في المنطقة الشرقية تسير في خطين: أحدهما شمالي إلى بلاد ما وراء النهر، والآخر جنوبي إلى بلاد السند (٥).

(١) بلاد ما وراء النهر: يراد به ما وراء نهر جيحون بخراسان، وهي من أكثر الأقاليم خيراً. الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٤٥، ٤٦.

(٢) بيكند: بلدة بين بخارى وجيحون، لها ذكر في الفتوح، وكانت كبيرة حسنة كثيرة العلماء، خربت منذ زمن. قال صاحب كتاب الأقاليم: كل بلدة بما وراء النهر لها مزارع وفري إلا بيكند فإنها وحدها، غير أن بها من الرباطات ما لا أعلم ببلد من البلدان ممّا وراء النهر أكثر منها، بلغني أن عددها نحو ألف رباط، ولها سورٌ حصينٌ ومسجدٌ جامعٌ قد تنوّق في بنائه وزخرف محرابه، فليس بما وراء النهر محراب مثله ولا أحسن زخرفة منه. الحموي: معجم البلدان، ج ١، ص ٥٣٣.

(٣) بخارى: مدينة إسلامية تقع في غرب جمهورية أوزبكستان في آسيا الوسطى، واسمها مشتق من كلمة بخار المغولية وتعني: العلم الكثير، وبخارى إقليم يمتد من نهر جيحون حتى صحراء قزل قم.

(٤) الصغد: وهما صغدان: صغد بخارى، وصغد سمرقند. وهي فري متصلة خلال الأشجار والبساتين من سمرقند إلى قريب من بخارى. البغدادي: مرصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ج ٢، ص ٨٤٢.

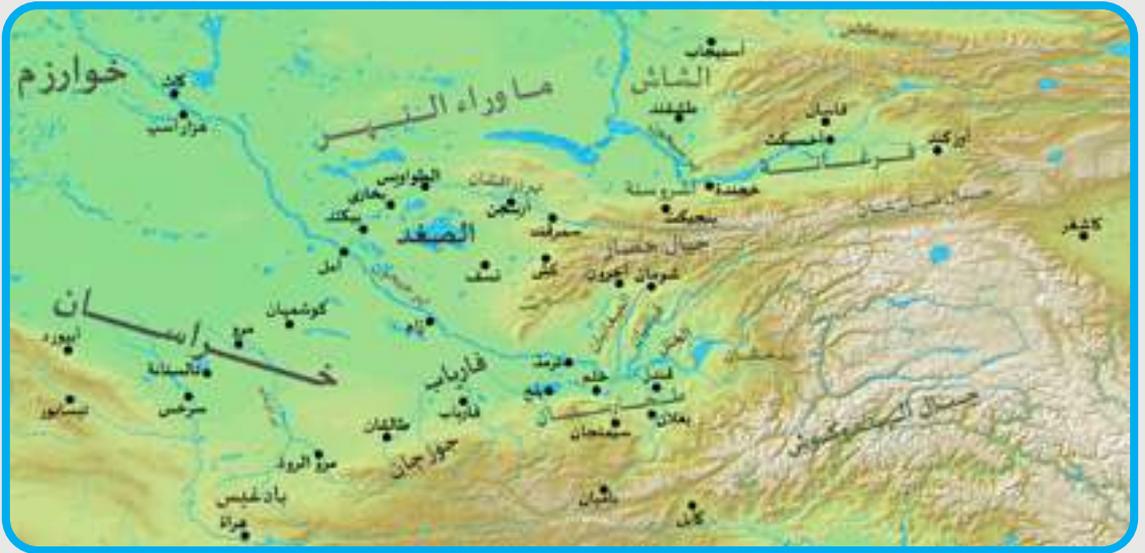
(٥) السند: ولاية أقامها المسلمون في القرن ٧هـ / ٧م، وشملت الحوض الأدنى لنهر السند. ولم تكن هذه البلاد مجهولة للعرب إذ كانت تجارتها تمر بالأرض العربية. بدأت علاقتها بالمسلمين بحملة بحرية بقيادة المغيرة بن أبي العاص الثقفي عام ١٥هـ، واستنطع المسلمون أمر الهند في خلافة عثمان 2، وقاد الحارث بن مرة حملة إليها في خلافة علي 2.

الخط الشمالي:

بلاد ما وراء النهر:

أطلق المسلمون اسم ما وراء النهر على البلاد التي يفصلها نهر جيحون عن خراسان، وهي التي تقع وراءه من جهة الشرق والشمال. وتعرف الآن باسم آسيا الوسطى الإسلامية وتضم خمس جمهوريات إسلامية كانت خاضعة للاتحاد السوفيتي، ثم من الله عليهم فاستقلوا بعد انهياره. وهي: أوزبكستان وطاجيكستان وقازاخستان وتركمناستان وقرغيزيا.

وتقع بلاد ما وراء النهر بين نهر جيحون - ويعرف حالياً بأموداريا - جنوباً، ونهر سيحون (١) - ويعرف حالياً بسرداريا - يقع الآن في كازاخستان شمالاً، ويُطلق عليها أحياناً - بلاد الهياطلة وكان أهلها وثنيين من أصول تركية، حلوا بها منذ القرن السادس الميلادي، وتتميز بوفرة المياه، لوجود نهري جيحون وسيحون وروافدهما الكثيرة، مما ساعد على خصوبة المنطقة وكثرة الزراعة والعمارة فيها، واجتذاب السكّان إليها.



شكل (٩) بلاد ما وراء النهر

(١) سيحون: هو أحد الأنهار الشهيرة بالقرب من سمرقند على حدود تركيا، ويقع في بلاد ما وراء النهر، وكان اسمه قديماً سرداريا، وأطلق عليه الأتراك اسم سيحون، وعرفه العرب بهذا الاسم. وقد تردد اسم هذا النهر كثيراً أثناء الحديث عن فتوحات المسلمين في بلاد ما وراء النهر. ويبلغ طوله ٣٠٠ ميل.

- يمكن تقسيمها عند الفتح الإسلامي إلى عدّة أقاليم أو ممالك مستقلة وهي:
- ١- إقليم طخارستان^(١): ويقع على ضفتي نهر جيحون وعاصمة بلخ^(٢).
 - ٢- إقليم الصغد: ومن أشهر مدنه: بيكند وبخارى وسمرقند^(٣).
 - ٣- إقليم خوارزم^(٤): ويشمل على دلتا نهر جيحون وعاصمته: الجرجانية^(٥).
 - ٤- إقليم الختل^(٦): في أعالي نهر جيحون، وعاصمته مدينة هلبك^(٧). ومن مدنه: أشجرد والصغانيان^(٨)، وكانت هذه الممالك الأربعة تسمى بالممالك الجيخونية.
 - ٥- إقليم فرغانة^(٩): على نهر سيحون. وتعرف اليوم باسم خوقند.
 - ٦- إقليم الشاش^(١٠): على نهر سيحون أيضاً، وتعرف اليوم بطشقند عاصمة كازاخستان الآن.

(١) طخارستان: اسم أطلق على الإقليم الذي يمثل اليوم المنطقة الشمالية من أفغانستان.

(٢) بلخ: مدينة عظيمة من أمهات بلاد خراسان. بناها منوچهر بن ايرج بن افریدون. أهلها مخصوصون بالطرمة من بين سائر بلاد خراسان. القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، ص ٣٣١.

(٣) سمرقند: اسم يطلق على إقليم ومدينة في جمهورية أوزبكستان الإسلامية، الإقليم يقع شمالها، أما المدينة فتقع على ضفة نهر زرافستان، وتبعد ١٣٠ ميلاً عن بخارى، فتحها صلحاً سعيد بن عثمان بن عفان عام ٥٧ هـ / ٦٧٧ م، ثم أعاد فتحها بعد قتال شديد فتية بن مسلم في خلافة الوليد بن عبد الملك عام ٩٣ هـ / ٧١١ م.

(٤) خوارزم: كورة من خراسان، وتحيط بها المفاوز والصحاري من كل جانب، وهي مدينة حصينة كثيرة الطعام والفاكهة. الحميري: الروض المعطار، ص ٢٢٥.

(٥) الجرجانية: مدينتان على ضفة النهر، واسم الشرقية درغاش والغربية الجرجانية، وهي كبيرة عامرة ذات أسواق وربض وسور محيط بالربض، والمدينة طولها نحو تسعة أميال في مثلها. الحميري: الروض المعطار، ص ١٦٢.

(٦) الختل: كورة واسعة كثيرة المدن، خلف جيحون أجل من صغانيان، وأوسع خطة، وأكثر مدناً، وأكثر خيراً، وهي على تخوم السند، يقال لقصبته هلبك. ولها مدن كثيرة. البغدادي: مرصد الاطلاع، ج ١، ص ٤٥٢.

(٧) هلبك: من بلاد الختل، مدينة حسنة البقعة، كثيرة البساتين والمنتزهات، وبنائها بالطين والأجر والجيار، وبها أسواق كثيرة، وهم قوم مياسير، والسُلطان ينزل بها. الحميري: الروض المعطار، ص ٥٩١.

(٨) الصغانيان: من أكبر المدن التي عن يسار المشرق من بلخ. ولها ربض وعليه سور تراب، وبها أسواق وقرى وعمارات وصناعات. الحميري: الروض المعطار، ص ٣٦١، ٣٦٢.

(٩) فرغانة: ناحية مشتملة على بلاد كثيرة بعد ما وراء النهر، متاخمة لبلاد الترك، أهلها من أتم الناس أمانة وديانة على مذهب أبي حنيفة، كانت ذات خيرات وغلث وثمرات. القزويني: آثار البلاد، ص ٢٣٥، ٢٣٦.

(١٠) الشاش: مدينة جبلية من عمل سمرقند وقصبته بنكت، والشاش في أرض مستوية لا جبل فيها ولا أرض مرتفعة، وبساتينها ومنتزهاتها كثيرة، وهي من الثغور التي في ناحية الترك. الحميري: الروض المعطار، ص ٣٣٥.

ومن مُدن هذين الإقليمين الأخيرين: حُجَنْدَة (١) وإيلاق (٢) واسبيجاب (٣).
 ومن الجدير بالذكر أن التُّرك الذين واجههم المسلمون في هذه البلاد - بلاد ما وراء النَّهر الواقعة بين بلاد إيران وبلاد المَعُول - كانوا أجناساً، وكان أول جنس قابلوه هو جنس «الهياطلة» «Heptalirtes»، وكانوا قسمين كبيرين:
 ١- قبائل الشمال: وهي التي تسمى في الغالب باسم الهياطلة، ويلقب ملكهم بالزونبيل، وهذا اللقب يقرأ أحياناً الرتبيل خطأ.
 ٢- قبائل الجنوب: وهي التي تسمى بالزابليين، وقد استقروا في إقليم زَابِلِسْتَان (٤) وأعطوه اسمهم.
 ولم يكن الهياطلة هم الجنس التُّركي الوحيد الذي دخل المسلمون في صراع معه في هذه المرحلة من مراحل بنائهم للدولة الإسلامية، بل كان هناك التُّرك البختيون، ويسمون في غير العَرَبِيَّة باسم البكتريين نسبةً إلى إقليم باكتريا الذي سكنوه.
 وعندما دخل المسلمون في صراع مع التُّرك قاتلوا البختيين في الوقت نفسه الذي قاتلوا فيه الهياطلة، وكلا الفريقين ينتمي إلى الأتراك الغزية.

(١) حُجَنْدَة: بينها وبين سَمَرْقَنْد عشرة أيام مشرقاً، وهي مدينة نزهة ليس بذلك الصَّعق أنزه منها ولا أحسن فواكه، وفي وسطها نهرٌ جارٍ، والجبل متصل بها. الحَمَوِي: معجم البُلْدَان، ج ٢، ص ٣٤٧.

(٢) إيلاق: من بلاد خُرَّاسَان، وبجبل إيلاق ذهبٌ وفضة، وليس فيما وراء النَّهر دار ضرب إلا بسَمَرْقَنْد وبُخَارَى وإيلاق، وإيلاق بضع عشرة مدينة، مقدار عرضها مسيرة يومين في ثلاثة أيام، وآخر حدودها ينتهي إلى وادي الشَّاش الذي يقع في بحيرة خوارزم وعمامة دور مُدُنْها يجري فيها الماء. الحَمِيرِي: الرُّوض المعطار، ٧١٠.

(٣) اسبيجاب: مدينة متصلة ببلاد الشَّاش لها قهندز وربض ودار الإمارة والجامع في المدينة الداخلة، وفي ربضها مياه وبساتين، وهي مدينة في مستو من الأرض، وهي ذات خصب وسعة، وليس بخُرَّاسَان كلها وما وراء النَّهر منها بلد لا خراج عليه إلا اسبيجاب. الحَمِيرِي: الرُّوض المعطار، ص ٧١.

(٤) زَابِلِسْتَان: كورة واسعة قائمة برأسها جنوبي بلخ وطخارستان وهي زابل، والعجم يزيدون السين وما بعدها في أسماء البُلْدَان شبيها بالنسبة، وهي منسوبة إلى زابل جد رستم بن دستان، وهي البلاد التي قصبتهَا عَزْنَة البلد المعروف العظيم. الحَمَوِي: معجم البُلْدَان، ج ٣، ص ١٢٥.



شكل (١٠) مواجهة المسلمون مع الهياطة

وقد طرق المسلمون هذه البلاد عدّة مرّات منذ خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفّان 2 (٢٤-٣٥هـ)، وغزاها - في خلافة بني أمية - عددٌ من القادة المسلمين إلى سنة ٥٨٦هـ / ٧٠٤م كان منهم: عبيدالله بن زياد^(١)، وسعيد بن عثمان بن عفّان^(٢)

(١) عبيدالله بن زياد بن أبيه: وُلِدَ بالبصرة، كان مع ولده لَمّا مات بالعراق فقصد الشّام فولاه عمه مُعاوية 2 خُراسان سنة ٥٣هـ فتوجه إليها، ثم قطع النّهر ففتح «راميثن» ونصف بيكند، وأقام بخُراسان سنين، ونقله مُعاوية إلى البصرة أميراً عليها سنة ٥٥هـ فقاتل الخوارج، وأقرّه يزيد على إمارته سنة ٦٠هـ، ولَمّا مات سنة ٦٥هـ بايع أهل البصرة لعبيدالله ثم لم يلبثوا أن وثبوا عليه فهرب إلى الشّام، ثم عاد يريد العراق، فلحق به إبراهيم بن الأشتر في جيش يطلب ثأر الحسين، فاقتتلا فقتله ابن الأشتر. الزّركلي: الأعلام، ج ٤، ص ١٩٢، ١٩٣.

(٢) سعيد بن عثمان بن عفّان الأموي القرشي: نشأ في المدينة، وبعد مقتل أبيه وفد على مُعاوية 2، فولاه خُراسان سنة ٥٦هـ ففتح سمرقند، وأصيب عينه بها، وعُزل عن خُراسان سنة ٥٧هـ، ولما مات مُعاوية 2، انصرف إلى المدينة، فقتله أعلام كان قدم بهم من سمرقند. الزّركلي: الأعلام، ج ٣، ص ٩٨.

والمُهَلَّب بن أبي صُفْرَةَ^(١)، وكلُّ من ولديه: يزيد^(٢) والمُفَضَّل^(٣)، ولم تُسفر حملات هؤلاء القادة العظام عن فتح.



شكل (١١) خريطة تُظهر الحد الذي توقّف عنده الزحف الإسلامي

(١) المُهَلَّب بن أبي صُفْرَةَ: هو المُهَلَّب بن أبي صُفْرَةَ ظالم بن سراق الأزدي، والي خُرَاسَانَ أيام عبدالمك بن مَرْوَانَ. وُلِدَ في دِبا ونشأ في البَصْرَةَ، تولى إمارة البَصْرَةَ لمُصْعَب بن الزُّبَيْرِ، وقَرَّبَهُ الحَجَّاج إليه لقتاله الخوارج، وكان يأخذ خراج كل بلد يُجلبهم عنها سنة. تولى إمارة خُرَاسَانَ سنة ٧٩هـ، وقد أصيبت عينه يوم فتح سَمَرْقَنْدَ، كان مشهوراً بالكرم والحكمة والبلاغة. وتوفي غازیاً بإحدى مَدُن خُرَاسَانَ في (ذي الحجة ٨٣هـ)، ثم تولى ابنه يزيد خُرَاسَانَ.

(٢) يزيد بن المُهَلَّب: أبو خالد، وُلِدَ سنة ٥٣هـ / ٦٧٣م، وُلِيَ خُرَاسَانَ بعد أبيه، ومكث في ولايته نحو ست سنين، ثم عزله الوليد بن عبدالمك بتحريض من الحَجَّاج، فحبسه الحَجَّاج فهرب، ولمَّا تولى سُلَيْمَانَ الخليفة ولاة العراق ثم خُرَاسَانَ، وعندما تولى عَمْر بن عبدالعزيز عزله وحبسه بـحلب، ولمَّا مات عَمْر أخرجته غلمانته وسار إلى البَصْرَةَ ودخلها وأعلن الخروج على بني أمية، فقتله مسلمة بن عبدالمك في مكان يُسمى العقر بين واسط وبغداد سنة ١٠٢هـ / ٧٢٠م.

(٣) المُفَضَّل بن المُهَلَّب، أبو عَسَّان: ولاة الحَجَّاج خُرَاسَانَ سنة ٨٥هـ فمكث سبعة أشهر، وولاه سُلَيْمَانَ جُنْدَ فلسطين، ثم شهد مع أخيه يزيد قيامه على بني مَرْوَانَ في العراق، ولمَّا قُتِلَ أخوه مضى بمن بقي معه إلى واسط، وقد أصيبت عينه، ثم انتقل إلى قنديل (بالسند) فأدرکه هلال ابن أحوز التميمي، وكان قد سيَّره مسلمة بن عبدالمك بن مَرْوَانَ لقتاله، فقاتله المفضل وأصحابه، وتكاثر عليهم أصحاب مسلمة، فقتل المفضل على أبواب قنديل. الزركلي: الأعلام، ج ٧، ص ٢٨٠.



وقد انعكست الخلافات والانقسامات التي أعقبت موت معاوية ٢ من سنة ٥٦٠ هـ / ٦٧٩ م إلى سنة ٥٧٢ هـ / ٦٩١ م على الفتوح في هذه المنطقة.

وأصبح المسلمون في موقفٍ دفاعيٍّ، حيث اغتتم التُّرك انشغال المسلمين بهذا الخلاف، فكانوا يغيرون على ديار الإسلام، ويحرضون أهل الصُّلح من البلاد على الثورة، وبلغوا في بعض هجوماتهم إلى قرب مدينة نيسابور (١) في خراسان، وفقد المسلمون كثيراً من المناطق التي كانوا يسيطرون عليها.

وما إن تمكَّن الخليفة عبد الملك بن مروان (٦٥-٥٨٦ هـ / ٦٨٤-٧٠٤ م) من القضاء على مناوئيه، حتى بدأ يولي الفتح الاهتمام الواجب، وكان ولأته على إقليم العراق هم مفتاح النَّجاح على الجبهة الشرقية من الدولة الإسلامية، وكان الحجاج بن يوسف الثقفي (٢) الذي ولي العراق والمشرق سنة ٥٧٥ هـ / ٦٩٤ م ذا فضل كبير؛ بسبب شدته في تحقيق قدرٍ كبيرٍ من الاستقرار في العراق - ولو ظاهرياً - مكن من خروج الحملات العسكرية نحو الأقاليم الشرقية.

وقد اضطلع بعبء هذه الفتوحات ثلاثة من قادة الحجاج، وهم: المهلب بن أبي صفرة، وقتيبة بن مسلم الباهلي (٣)، ومحمد بن القاسم الثقفي (٤).

أمَّا المهلب بن أبي صفرة فقد ولاه الحجاج بن يوسف الثقفي خراسان سنة ٥٧٨ هـ / ٦٩٧ م، وقام بفتوحاتٍ واسعةٍ فيما وراء النهر

(١) نيسابور: مدينة إيرانية تقع جنوبي غربي مشهد على بعد ١١٠ كم، فتحها الأحنف بن قيس في خلافة عمر ٢ ثم أعاد فتحها عبدالله بن عامر سنة ٥٣١ هـ في خلافة عثمان ٢.

(٢) الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفي: أبو محمد: وُلِدَ ونشأ في الطائف، وانتقل إلى الشام، فلحق بروح بن زنباع - نائب عبد الملك بن مروان - ثم قلده عبد الملك أمر عسكره، وأمره بقتال عبدالله بن الزبير، فولاه مكة والمدينة والطائف، ثم أضاف إليها العراق والتهرة قائمة فيه، فقمع الثورة وثبتت له الإمارة عشرين سنة، وبنى مدينة واسط، وكان سفاهاً سفاكاً باتفاق معظم المؤرخين، مات بواسط الزركلي: الأعلام، ج ٢، ص ١٦٨.

(٣) قتيبة بن مسلم الباهلي: أبو حفص، وُلِدَ سنة ٤٤٩ هـ / ٦٦٩ م، وتولى الري أيام الخليفة عبد الملك بن مروان، وخراسان أيام الوليد، فتح خوارزم، وسجستان، وسمرقند، وبخارى وغزا أطراف الصين وانتصر على التُّرك في مواقع كثيرة، ووطد الإسلام في تلك المناطق، واستمرت ولايته على بلاد ما وراء النهر ١٣ سنة، حتى قتل سنة ٥٩٦ هـ / ٧١٤ م.

(٤) محمد بن القاسم الثقفي: محمد بن القاسم بن الحكم بن أبي عقيل، وُلِدَ سنة ٥٦٢ هـ / ٦٨١ م، لأبٍ كان والياً على البصرة والسند من قبل الحجاج بن يوسف، وظل محمد بن القاسم قائداً للامويين، حتى توفي سنة ٥٩٨ هـ / ٧١٧ م.

ففتح مدينة كَش (١) في مملكة الصُّغْد، ووجه منها حملةً بقيادة ابنه يزيد إلى مَلِك الخُتَل واضطره إلى دفع الجزية. كما فتح يزيد قلعة نيزك بإقليم بادغيس (٢) بين مَرُو (٣) وهَرَات (٤)، وغزا خُوارِزْم، واستطاع المُهَلَّب وأبناؤه في مُدَّة عامين تقريباً أن يُعيدَ هيبة المسلمين في المنطقة، وإن كان لم يوفق في إقامة قواعِد ثابتة هناك.



شكل (١٢) الخليفة عبدالملك بن مَرَوَان

(١) كَش: قرية حصينة جداً، ولها نهران كبيران: نهر القصارين ونهر سرور، وفي عامَّة كورها مياه جارية وبساتين حسنة، وفي جبالها العقاقير الكثيرة، وكش أهلها مسلمون، وبها غوص اللؤلؤ على أربعة فراسخ من شط فارس. الحموي: مُعْجَم البُلْدَان، ج ٤، ص ٤٦٢؛ الحِميرِي: الرُّوض المِعْطَار، ص ٥٠١.

(٢) باداغيس: عامرة ذات خيرات ولها حوالي ثلاثمائة قرية، وافتتحها عبدالرَّحْمَن بن سمرة أيام مُعاوية بن أبي سفيان 2. اليعقوبي: البُلْدَان، ص ١٠١؛ مُؤَلَّف مجهول: حدود العالم من المشرق الى المغرب، ص ١١٦.

(٣) لفظ مَرُو في العَرَبِيَّة يعني الحجارة البيضاء التي يُقْتَدَح بها، وقد كانت أشهر مُدُن خُرَاسَانَ، وتقع في واحة كبيرة بصحراء كاراكوم بجمهورية تركماستان على نهر مرجب، وكانت مركزاً للثقافة الإسلامية في العصور الوسطى.

(٤) هَرَات: تقع في إقليم سجستان شمالي غربي أفغانستان، فتحها الأحنف بن قيس سنة ٥١٨ / ٦٣٩ م.

فتوحات قتيبة بن مسلم في بلاد ما وراء النهر:

بدأت المرحلة الحاسمة في الفتح والاستقرار مع تسلم قتيبة قيادة جيوش الفتح وولاية خراسان وبلاد الشرق سنة ٥٨٥ / ٧٠٣م، وظل والياً عليها إلى سنة ٥٩٩ / ٧١٧م، وقد كانت الظروف مواتية له تماماً، فالدولة الأموية كانت في أحسن حالاتها استقراراً وهدوءاً وثراءً، فاجتمع لقتيبة مهارة القائد وعزم الوالي الحجاج بن يوسف الثقفي وتشجيعه، وقوة الدولة وهيبته، فكانت فتوحاته العظيمة في بلاد ما وراء النهر.

ولم يكن قتيبة قائداً عسكرياً فحسب، بل كان إلى جانب ذلك رجل دولة، وصانع سياسة، وواضع نظم وإدارة، فعمل بعد تسلمه أمور الولاية على القضاء على الخلافات العصبية التي كانت تعصف بالقبائل العربية في خراسان، من جرأء التنافس على الولايات، وجمع زعماءهم على كلمة واحدة تحت الجهاد، كما أنه عمل على كسب ثقة أهل خراسان الأصليين، فأحسن إليهم، وقربهم، وعهد إليهم بالوظائف، فاطمان الجميع إليه، ووثقوا به وبقيادته.

سار قتيبة على الخطة نفسها التي سار عليها آل المهلب، وهي خطة الضربات السريعة المتلاحقة على الأعداء، فلا يترك لهم وقت للتجمع، غير أنه امتاز على المهالبة بأنه كان يضع لكل حملة خطة ثابتة، ويحدد لها وجهة معينة، ويجتهد في الوصول إلى ما يقصده، غير عابئ بالمصاعب، معتمداً على الله، ثم على بسالته النادرة، وروح القيادة التي امتاز بها، وإيمانه العميق بالإسلام.

ولقد مرت خطوات قتيبة في فتح تلك البلاد على مدى عشر سنوات ٨٦-٥٩٦ / ٧٠٤-٧١٤م عبر مراحل أربع، حقق في كل منها فتحاً ناحية واسعة فتحاً نهائياً، وثبت أقدام المسلمين والإسلام فيها. وهذه المراحل هي:

المرحلة الأولى (٨٦-٥٨٧ / ٧٠٤-٧٠٥م):

وفيها أخضع قتيبة بن مسلم إقليم طخارستان الواقع على ضفتي نهر جيحون، ويبدو أن أوضاعه لم تكن قد استقرت للمسلمين تماماً منذ أن فتحه الأحنف بن قيس (١) في خلافة عثمان ابن عفان 2، وكانت تلك بداية ناجحة من قتيبة؛ فبدون توكيد

(١) الأحنف بن قيس: أبو بجر الصّحّاك بن قيس بن معاوية بن حصين المري السعدي، وُلِدَ في البصرة سنة ٣٣٠ هـ، شهد فتح الأهواز ومناذر ونهر تيري سنة ١١٧ هـ / ٦٣٨ م، وفي سنة ٢٢٤ هـ / ٦٦٤ م غزا بلاد خراسان، وتمكّن من فتح هراة عنوة، ثم دخل مرو والشاهجان فاتحاً، وفي عهد عثمان 2 اشترك في إعادة فتح خراسان سنة ٣١١ هـ / ٦٥١ م. واشترك مع علي 2 في معركة صفين، وفي قتال المختار الثقفي سنة ٦٧ هـ / ٦٨٦ م، وكان من المشهورين بالحلم والأناة حتى صار يُضرب به المثل أحلم من الأحنف. وتوفي بالكوفة سنة ٦٧ هـ / ٦٨٦ م، وقيل سنة ٧٢ هـ / ٦٩١ م.

أقدمه في «طخارستان» لم يكن ممكناً أن يمضي لفتح «ما وراء النهر»، وقد أصبح يتمتع بهيبة كبيرة في تلك البلاد، فما إن يسمع الملوك بمسيره إليهم حتى يسرعوا إلى لقائه وطلب الصلح.

المرحلة الثانية (٨٧-٨٩٠هـ / ٧٠٥-٧٠٨م):

وفيها فتح قتيبة إقليم بخارى كله بعد حروب طاحنة وانتظام حملاته عليها.

المرحلة الثالثة (٩١-٩٣هـ / ٧٠٩-٧١١م):

وفيها أكمل فتح حوض جيحون كله، وأتم فتح سجستان ٧٩٢هـ / ٧١٠م، وإقليم خوارزم ٧٩٣هـ / ٧١١م، وتوج عمله بالاستيلاء على سمرقند أعظم مدن ما وراء النهر.

ومن جميل ما يروى في فتح سمرقند أن المسلمين حينما دخلوها أخرجوا ما فيها من الأصنام وأحرقوها، وكان أهل سمرقند يعتقدون أن من استخف بها هلك، فلما أرقها المسلمون ولم يصابوا بأذى، أسلم من أهلها خلق كثير.

المرحلة الرابعة (٩٤-٩٦هـ / ٧١٢-٧١٤م):

وفيها عبر قتيبة نهر سيحون، وفتح الممالك السيحونية الثلاث: الشاش وأشروسنة (١) وفرغانة، ثم دخل أرض الصين، وأوغل في مقاطعة سنكيانج، ووصل إلى إقليم كاشغر (٢) وجعلها قاعدة إسلامية، وتهيأ لفتح الصين لولا أن وفاة الحجاج بن يوسف الثقفي سنة ٧٩٥هـ / ٧١٣م، والخليفة الوليد بن عبد الملك سنة ٧٩٦هـ / ٧١٤م جعلته يتوقف عند هذا الحد، لكنه أجبر ملك الصين على دفع الجزية. ونذكر هنا ثلاث ملاحظات جديرة بالتسجيل وهي:

١- كان أهل هذه البلاد جاهلين بحقيقة الإسلام، وتصوروا أن المسلمين إنما جاءوا للاستيلاء على خيرات بلادهم، الأمر الذي جعلهم يقاومون بشراسة، لكنهم لما عرفوا أن المسلمين ليسوا غزاة، وإنما هداة يحملون إليهم الإسلام، أقبلوا على اعتناقه والإيمان بمبادئه.

٢- كان السكّان في هذه المناطق يرضون بالصلح، أو يعتنقون الإسلام ظاهرياً في بداية الأمر كما أسلفنا، وما إن ينصرف الجند المسلمون حتى ينقضوا العهد أو يرتدوا عن الإسلام، وهذا يظهر بوضوح مدى منطقية

(١) أشروسنة: بلدة كبيرة، بينها وبين سمرقند ستة وعشرون فرسخاً، والغالب عليها الجبال. الحموي: مُعْجَم البُلْدَان، ج ١، ص ١٩٧.

(٢) كاشغر: مدينة في قلب جبال تيان شان أقصى التُّرْكُستَان شرق من طاشقند وسمرقند، وهي اليوم من تركستان الصينية.



مفهوم عُقْبَةَ بن نافع (١) - فاتح إفريقية ومؤسس مدينة القيروان فيها - بضرورة أن يكون الفتح معنوياً وليس عسكرياً، فالفتح المعنوي يحتاج إلى وجود مسلمين مقيمين في المنطقة بعد فتحها، يفتحون القلوب بالإيمان والعلم. أمّا الفتح العسكري فيتم بواسطة الجُند الذين يرتحلون بعد نجاح المُهْمَّة العسكرية، فلا يحققون شيئاً في الواقع سوى فتح الأرض التي تنقض عليهم فور انسحابهم.

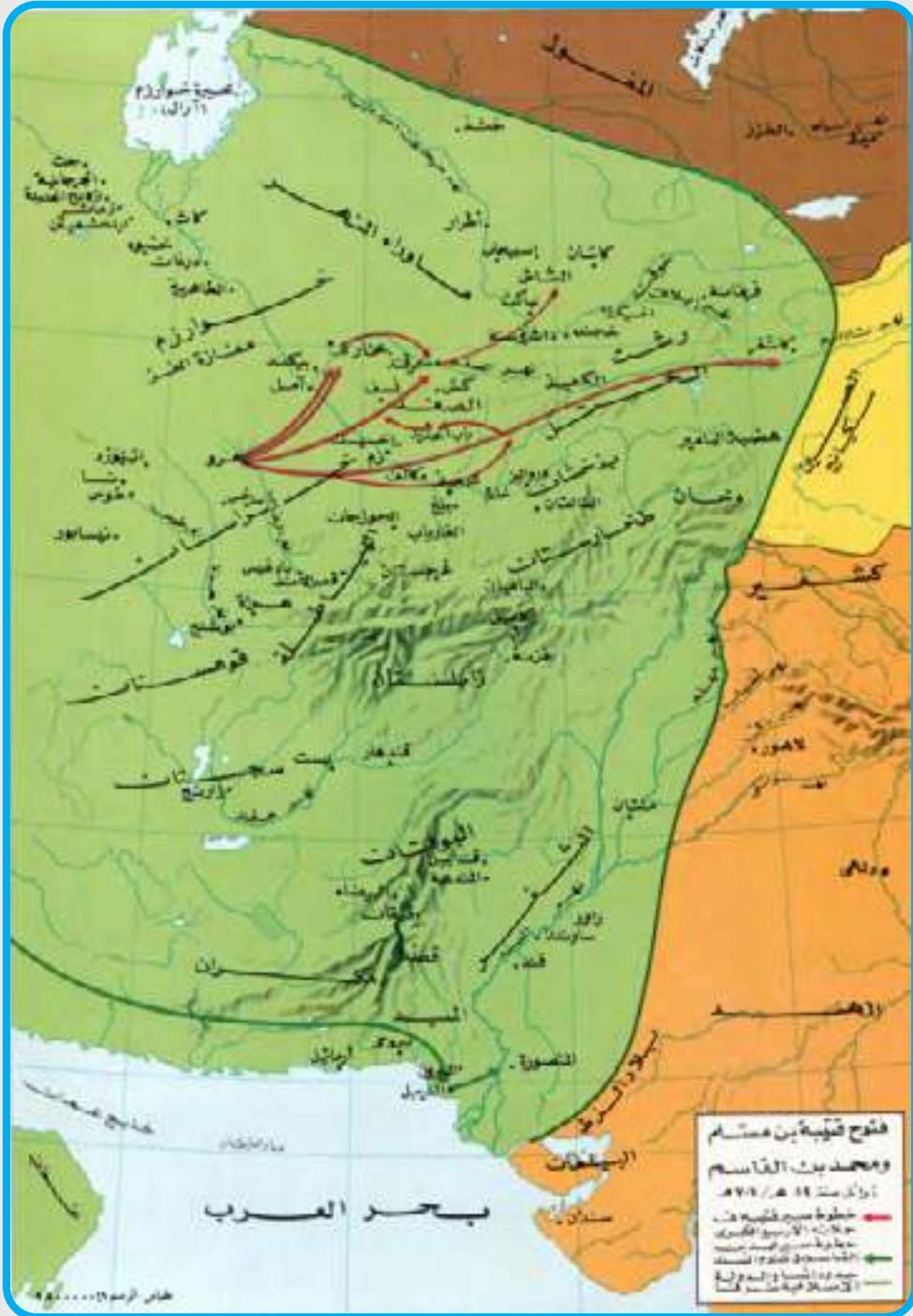
٣- لا شك أن قيادة قتيبة بن مُسَلِّم الفذة وخطّطه العسكرية المحكمة، ودعم القيادة العليا له - ممثلة بالحجاج في العراق، والخليفة عبدالمك، ثم ابنه الوليد في السّام - إضافة إلى ما كان من طاقات إيمانية عند الجُند: جعل النّصر حليف المسلمين في هذا الميدان، وقد ساعد ذلك - مع المعاملة الطيّبة لأهل البلاد - على تحويل المنطقة إلى دار إسلام.

وبوفاة قتيبة بن مُسَلِّم الباهلي توقفت فتوحات المسلمين على هذه الجبهة عند الحد الذي تركها هو عليه، ذلك أنه لمّا تولى يزيد بن المُهَلَّب بن أبي صُفْرَةَ على إقليم خُرَاسَان - ولاه عليها الخليفة سُلَيْمَان بن عبدالمك (٢) سنة ٧١٥ / ٧١٥م - وجاه اهتمامه إلى فتح جُرْجَان وطَبْرِسْتَان، ولم يكن المسلمون قد وطأوا أيهما من قبل، وذلك حتى يحقق فتحاً يغبط سُلَيْمَان ابن عبدالمك، كما كانت نجاحات قتيبة بن مُسَلِّم تغبط الوليد بن عبدالمك.

ولقد استطاع القائد يزيد بن المُهَلَّب بن أبي صُفْرَةَ أن يفتح جُرْجَان بالفعل صلحاً، ثم توجه إلى طَبْرِسْتَان، فنقض أهل جُرْجَان عهدهم، فعاد وحاربهم وفتحها هذه المرّة عنوةً.

(١) عُقْبَةُ بن نافع بن عبدالقيس الأموي الفهري: وُلِدَ في حياة النَّبِيِّ 6 ا.ق. هـ. شهد مع عمرو 2- ابن خالته - فتح مصر، ثم شارك معه في المعارك التي دارت في إفريقية، فولاه عمرو برقة، وفي خلافة معاوية 2 ولاه إفريقية، وفي سنة ٥٥ هـ عزله، فعاد للمشرق، وفي خلافة ابنه يزيد أعاد عقبة للولاية سنة ٦٢ هـ، واستشهد سنة ٦٣ هـ في مكان يعرف حتى الآن باسم سيدي عُقْبَةَ.

(٢) سُلَيْمَان بن عبدالمك بن مَرْوَانَ، أبوأيوب: الخليفة الأموي، وُلِدَ في دمشق، وولي الخلافة يوم وفاة أخيه الوليد سنة ٩٦ هـ، وتوفي في دابق (من أرض قنسرين- بين حلب ومعرّة النُعْمَان) وكانت عاصمته دمشق، ومُدَّة خلافته سنتان وثمانية أشهر إلا أياماً. الزُّرْكَلي: الأعلام، ج ٣، ص ١٣٠.



شكل (١٣) فتوح قتيبة بن مسلم



وظل الجهاد والاستعداد للغزو قائماً في هذا الجانب من العالم إلى نهاية حكم بني أمية، ومما يلاحظ في هذا الميدان أن التُّرك الذين ظلوا ينزلون خارج دائرة سُلطان المسلمين من بلاد ما وراء النهر كانوا - بعد فتوحات قتيبة بن مسلم - لا ينفكون يهجمون على المناطق التي دخلت في سُلطان المسلمين، ويحرضون أهلها على الثورة والعصيان، فكان المسلمون يقومون بإخضاعهم وإعادة البلاد إلى الطاعة.

ولا شك أن هذا الميدان كان من أشد الميادين قتالاً، ولم يكن دار حرب أشد من بلاد التُّرك، ولكنها تحولت بعد الجهود المتوالية إلى دار إسلام، وأصبحت في فترة تالية كعبة العلم والعلماء، ونشأت فيها مراكز حضارية مثل: بخارى، وبلخ، وسمرقند، ونيسابور، وهراة، ومرو، والرّي،

وجرجان، وسرخس^(١)، وطبرستان، وغيرها. وخرّجت هذه المُدن عدداً هائلاً من العلماء استضاءت بهم الأمة، وملأت أسماؤهم سمع الدنيا وبصرها، واليوم تتوزع هذه البلاد بين إيران وأفغانستان، أمّا الجزء الأكبر منها فيقع في الجمهوريات الإسلامية في آسيا الوسطى كازاخستان وأوزبكستان وتركمانستان وطاجكستان وقيرغيزيا.

الخط الجنوبي: فتح بلاد السند «حملات محمد بن القاسم»:

انقسمت شبه القارة الهندية في القديم إلى قسمين جغرافيين كبيرين، هما: «بلاد السند والبنجاب» و«بلاد الهند»، وبلاد السند هي البلاد المحيطة بنهر السند، الذي كان يسمى من قبل بنهر مهران^(٢)، وينبع من عيون في أعالي السند وجبالها من أرض قشمير - وتعرف في الزمن الحاضر بكشمير - ويصب في بحر السند، وهو المحيط الهندي.

(١) سرخس: مدينة بينها وبين نيسابور ستة مراحل، وهي بين نيسابور ومرو، وهي بلد جليل، ومدينته عظيمة، وهو في برية في رمال فيها أخلاط من الناس، لها رساتيق وقرى. الحميري: الروض المغطّر، ص ٣١٦.

(٢) نهر مهران: اسم أعجمي: موضع لنهر السند، قال حمزة: وأصله بالفارسية مهران رود، وهو واد يقبل من الشرق حتى يقع في أسفل السند، ويصب في بحر فارس، وهو نهر عظيم بقدر دجلة تجري فيه السفن ويسقي بلاداً كثيرة، وفيه تماسيح مثل ما في نهر النيل. الحموي: معجم البلدان، ج ٥، ص ٢٣٢.

وتمتد هذه البلاد غرباً من إيران، إلى جبال الهمالايا في الشمال الشرقي، تاركةً شبه القارة الهندي في جنوبها، وتُكوّن الآن جزءاً كبيراً من دولة باكستان الحالية. ومن أشهر مُدن بلاد السند: مدينة الديبل^(١) - وهي مدينة تقع مكان مدينة كراتشي الحالية، وكذلك قنابيل^(٢)، وقيقان^(٣)، ولاهور^(٤)، وقصّار^(٥)، والميد^(٦)، والملتان^(٧)، المجاورة للهند، وتقع على أعلى رافد من روافد نهر مهران. وكان العرب يطلقون على السند من الأسماء: ثغر الهند؛ لأنه كان في ذلك الوقت المعبر إلى بلاد الهند.

وقد سبق الفتح المنظم لبلاد السند سلسلة من الحملات والغزوات قام بها المسلمون منذ وقت مبكر، لمعرفة طبيعة البلاد وجمع المعلومات عنها، كما حدث لبلاد ما وراء النهر.

وكانت البداية مبكرة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب²، وتتابع الغزوات بعده في خلافة كل من عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان²، وحقق المسلمون فيها انتصارات عديدة، وغنموا مغانم كثيرة، إلى أن جاء عهد الوليد بن عبد الملك^{٨٦-٩٦هـ / ٧٠٤-٧١٤م}، فجاء عهد الفتح المنظم لهذه البلاد.

(١) الديبل: مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند. الحوي: مُعْجَم البُلْدَان، ج ٢، ص ٤٩٥.

(٢) قنابيل: مدينة بالسند وهي قسبة لولاية يقال لها الندّه، ومن قصار إلى قنابيل خمسة فراسخ، ومن قنابيل إلى المنصورة ثماني مراحل، ومن قنابيل إلى الملتان نحو عشر مراحل. الحوي: مُعْجَم البُلْدَان، ج ٤، ص ٤٠٢.

(٣) قيقان: منطقة بين خراسان وسجستان في شمالي أفغانستان الحالية.

(٤) لاهور: من أهم مُدن إقليم البنجاب. تقع على الجانب الأيمن لنهر رافي، وتعد المدينة الثانية في باكستان، ازدهرت تحت حُكم المغول المسلمين خلال القرنين ١٠، ١١هـ / ١٦، ١٧م، وفي القرن ١٣هـ / ١٩م أصبحت عاصمة السيخ.

(٥) قصّار: ناحية مشهورة قرب غزنة، قيل: أنها من بلاد الهند. وقيل: من بلاد السند وهو الصحيح، وهي قسبة ناحية يقال لها طوران، وهي مدينة صغيرة لها رستاق ومُدن. البغدادي: مراصد الإطلاع، ج ٣، ص ١٠٩٥.

(٦) الميد: ويعيش فيها قبائل الميد فهم على شطوط مهران من حدّ الملتان إلى البحر، ولهم في البرية التي بين مهران وبين قامهل مراغ ومواطن كثيرة، ولهم عددٌ كثيرٌ. الإصطخري: المسالك والممالك، ص ١٠٥.

(٧) الملتان: مدينة في آخر بلاد السند، وبعضهم يجعلها من الهند، وبها صنم يُعظّمه أهل الهند، ويحجون إليه، ويتصدقون عليه بأموالٍ جمّة وحلي كثير، وسميت الملتان باسم الصنم، وببيت هذا الصنم في وسط الملتان، وبأعمر سور فيها، والملتان مدينة كبيرة عامرة عليها حصن منيع، ولها أربعة أبواب، وبخارجها خندق، ونعمها كثيرة وأسعارها رخيصة، وإنما سميت الملتان لأن معناها فرج بيت الذهب، وكان مُحَمَّد بن يوسف أخو الحجاج أصاب فيها أربعين بهاراً من الذهب، والبهار ثثمانة وثلاثة وثلاثون مناً، وكلها في بيت، فسمي ذلك فرج الذهب، والفرج الثغر. الحميري: الرّوض المِعْطَار، ص ٥٤٦.



شكل (١٤) فتوحات محمد بن القاسم الثقفي

وبعد أن استقام الأمر للحجاج بن يوسف في جنوبي بلاد فارس، وتوطدت أقدام المسلمين هناك، وقضى على تمرد الملك رتبيل ملك سجستان، وأخضع بلاده، بدأ يعدُّ العدة لفتح إقليم السند نهائياً، فأرسل عدّة ولاة قتلوا في الغزو واحداً بعد آخر، إلى أن استقر رأيه على تعيين قائد كبير أسند إليه هذه المهمة وهو ابن أخيه وصهره محمد بن القاسم الثقفي، الذي عُرف بفتح السند، وكان والياً على فارس في سن السابعة والعشرين من عمره، وجهزه بما يكفل له النجاح من عدّة وعتاد، وأمده بستة آلاف جندي من أهل الشام، إضافة إلى ما كان معه من الجنود، فاجتمع تحت قيادته نحو عشرين ألفاً في تقدير بعض المؤرخين، وأنفق الحجاج على الجيش ستين ألف ألف (٦٠,٠٠٠,٠٠٠) درهم.



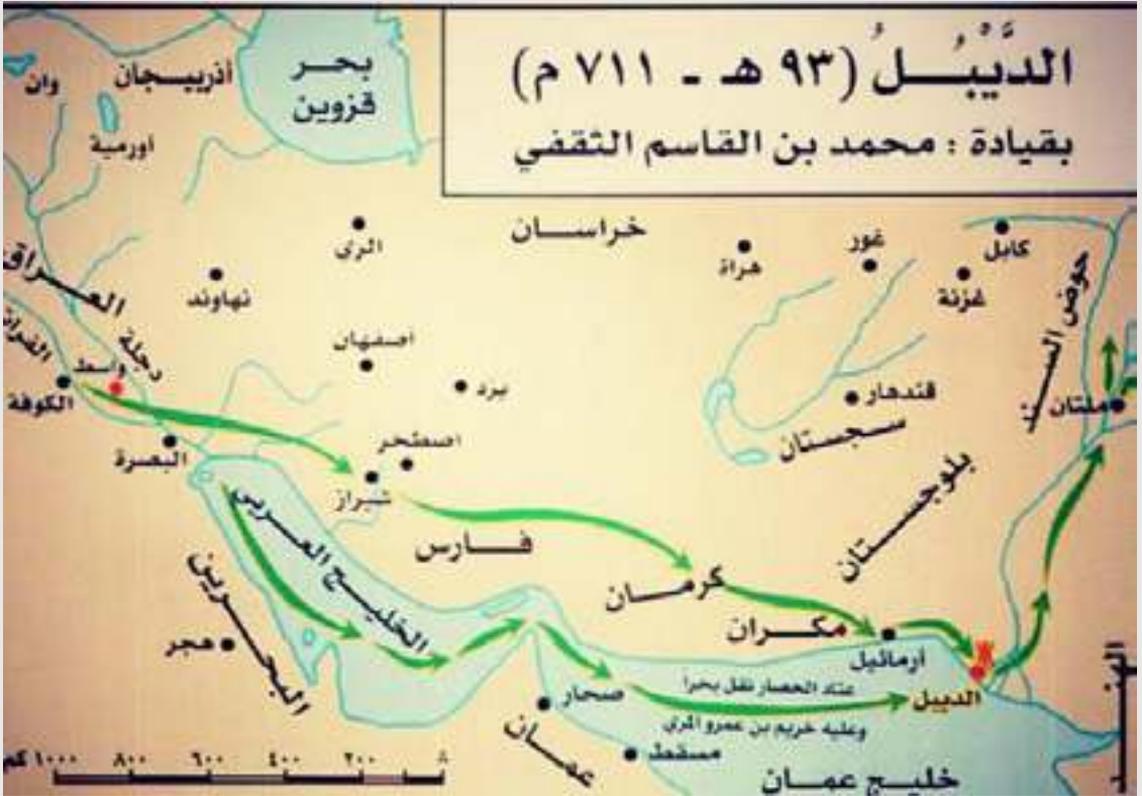
شكل (١٥) الحجاج بن يوسف الثقفي

ويمكن تلخيص مراحل الفتح التي قام بها مُحَمَّد بن القاسم في الخطوات الآتية:

- ١- سار مُحَمَّد بن القاسم بجنده من شيراز (١) إلى مُكَرَّان، وأقام بها أياماً، واتخذ منها قاعدةً للفتح ونقطة انطلاق، ثم فتح قنزابور، ثم أرمَئيل (٢).
- ٢- ثم تقدم لفتح الدَّيْبِل - وتقع الآن قريبة من كراتشي في دولة باكستان - وجعل عتادة أزواده في سَفْن أرسلها بالبحر من أرمَئيل، وحاصر الدَّيْبِل، ونصب عليها المَنجَنِيْق، وفتحها بعد قتال عنيف دام ثلاثة أيَّام، وهدم البد (كل تمثال أو معبد لبوذا) الكبير بها، وكل بد آخر، ثم حولها إلى مدينة إسلامية، وأزال منها كل آثار البوذية، وبنى بها المساجد، وأسكنها أربعة آلاف مُسْلِم.

(١) شيراز: مدينة في جنوب إيران، وهي عاصمة إقليم فارس، وتنقسم إدارياً إلى ثلاثة أقسام: القسم المركزي، وزركان، ومسروستان. تعد إحدى المُدن الزراعية المُهمَّة بإيران، وتشتهر بزراعة الأرز والحبوب وقصب السُّكَّر والبنجر والقطن الصيفي، كما يتميز العنب الذي يُزرع فيها بجودته عالمياً بين دول الشرق المنتجة له.

(٢) أرمَئيل: مدينة كبيرة بين مُكَرَّان والدَّيْبِل من السِّند، بينها وبين البحر نصف فرسخ. الحموي: مُعْجَم البُلْدَان، ج ١، ص ١٥٩.



شكل (١٦) فتح الديبل بقيادة محمد بن القاسم الثقفي

٣- كان لفتح المسلمين مدينة الديبل أثرٌ كبيرٌ على أهل السند، فسارعوا يطلبون الصلح، فصالحهم محمد بن القاسم ورفق بهم، ثم سار إلى مدينة البيرون (١) - حيدار أباد السند حالياً - فصالح أهلها، وجعل لا يمر بمدينة إلا فتحها صلحاً أو عنوة، حتى بلغ نهر مهران، فعبر النهر، وفاجأ داهر ملك السند، والتقى معه في معركة حامية ٧١١ / ٥٩٣ م قُتل فيها الملك، وانقض جمعها، وبمقتله استسلمت بقية بلاد السند، وأصبحت جزءاً من بلاد الإسلام.

٤- مضى محمد بن القاسم يستكمل فتحه، فاستولى على مدنٍ وحصونٍ كثيرةٍ إلى أن اجتاز نهر بياس واقتحم مدينة الملتان في إقليم البنجاب، في جيشٍ عدده خمسون ألفاً من الجنود والفرسان، عُشرهم فقط من الجيش الأصلي الفاتح،

(١) مدينة البيرون: يُنسب إليها أبو الريحان البيروني وهو تلميذ ابن سينا، وهذه المدينة من فرض بلاد السند التي على خليجهم الملح الخارج من بحر فارس، والنهر المنسوب إليها في شرقيها ينصب في الخليج، ومنبعه من جبال كابل المتصلة بجبال تخارستان، وهي هناك منبع بعض الأنهار مثل جبحون الجاري إلى الشمال.

ومعظمهم ممن انضم إلى المسلمين بعد نجاحهم في المعارك السابقة، فاستولى على المدينة بعد قتال عنيف، وقضى على كل التماثيل والمعابد البوذية هناك، وغنم مغام كثيرة من الذهب والفضة، ولهذا سميت الملتان بيت أو ثغر الذهب. وقد اتبع مُحَمَّد النَّقْفِي في مدينة الملتان ما اتبعه في المُدُن الأخرى التي فتحها، من حيث التنظيمات المالية والإدارية والعسكرية، فَعَيَّن الحُكَّام على كورها المختلفة، وترك بها حاميةً من الجنود، وأخذ العهود والمواثيق على أعيان المدينة بأن يعملوا على استقرار الأمن.

- ٥- في أثناء وجود مُحَمَّد بن القاسم في الملتان جاءه خبر وفاة الحجاج، فاغتم لذلك، لكنه واصل فتوحاته حتى أتم فتح بلاد السند، وجاءته قبائل الرُط (١) والميد - المعروفين بقطع الطُّرُق البرية والبحرية - مرحبين به، وتعهدوا له بالطاعة والعمل على سلامة الطُّرُق في البر والبحر.
- ٦- انتهت أعمال ابن القاسم الحربية بإخضاع إقليم «الكيرج» على الحدود السندية الهندية وهزيمة ملكه دوهو ومقتله؛ ودخول أهله في طاعة المسلمين.



شكل (١٧) مُحَمَّد بن القاسم النَّقْفِي

(١) الرُط: هم أمة من عوام السند وبواديهم، يُضرب بها المثل في الركاكة، ومنازلهم في أخصاص كرجالة البرابر على أنهار وبرك، وأصلها من نهر البيرون.



وكان مُحَمَّد بن القاسم النَّقْفِي يتطلع إلى فتح إمارة كَنُوج قَنُوج^(١)، وهي من أعظم إمارات الهنْد، والتي كانت تمتد من السِّنْد إلى البَنْغَال^(٢)، فاستأذن الحَجَّاج فَأَذِنَ له، وبينما هو على أتم الاستعداد لذلك كخطوة أولى نحو الوصول إلى كشمير وإتمام فتح كل السِّنْد والهنْد، إذ وصله موت الحَجَّاج سنة ٥٩٥ / ٧١٣م، ومن بعده بستة أشهر الخليفة الوليد بن عبدالمك سنة ٥٩٦ / ٧١٤م، وتولى أخوه سُلَيْمَان الخلافة، وكان سُلَيْمَان ينقم على الحَجَّاج وصنائه.

لأنه أقر الوليد بن عبدالمك على خلع بيعة سُلَيْمَان وعقدها لابنه عبدالعزيز بدلاً منه، ومن ثم فما أن تولى سليمان حتى عَزَلَ مُحَمَّد بن القاسم النَّقْفِي عن ولاية السِّنْد، وأمر به مقيداً إلى مدينة دمشق حيث عُدِّبَ حتى الموت، دون أن يشفع له جهاده في سبيل نشر الإسلام في مناطق استعصت على المسلمين طويلاً، بل كان الاعتبار الأهم هو للأهواء الشخصية.

ويعلق الدكتور «عبدالله جمال الدين» على مقتل ابن القاسم بقوله: «وإن المرء ليعجب كيف تنتهي حياة ذلك الشاب بهذه الصورة المريرة، وهو الذي فتح كل بلاد السِّنْد، ونشر الإسلام في كافة أرجائها في فترة قياسية لم تتجاوز السنوات الثلاث؟ كيف يواجه مُحَمَّد بن القاسم هذا المصير المؤلم ويُجْزَى ذلك الجزاء المهين؟ لقد تضاءلت أمام أعماله الحربية والسياسية عظمة الإسكندر المقدوني وشهرته، إذ بينما عجز الإسكندر قبل ألف عام عن الاستيلاء على قسم ضئيل من الهنْد كان سكانه أقل من ربع السُّكَّان، زمن ابن القاسم استطاع هذا الفتى أن يخضعها ويلحقها بالدولة الإسلامية من غير كبير عناء».

ويعلق الدكتور «عبدالله جمال الدين» على مقتل ابن القاسم بقوله: «وإن المرء ليعجب كيف تنتهي حياة ذلك الشاب بهذه الصورة المريرة، وهو الذي فتح كل بلاد

(١) قَنُوج: قال المُهَلَّبِي في العزيري: قَنُوج مدينة في أقاصي الهنْد، وهي في جهة الشرق عن الملتان وبينهما مائتان واثنتان وثمانون فرسخاً، وقَنُوج مصر الهنْد وأعظم المُدُن، وقد بالغ النَّاس في تعظيمها حتى قالوا إن بها ثلاثمائة سوق للجواهر ولملكها ألفان وخمسمائة فيل، وهي كثيرة معادن الذهب. المُهَلَّبِي: المسالك والممالك، ص ١٣٦.

(٢) البَنْغَال: تقع في إقليم البَنْغَال في الشمال الشرقي لشبه الجزيرة الهندية، ويشمل هذا الإقليم نهر الجانج وبراها ما بترافروعهما العديدة، من سفوح الهملايا شمالاً إلى ساحل خليج البَنْغَال، تبلغ مساحة البَنْغَال نحو ٨٣ ألف ميل مربع، ويُنسب فتح المسلمين لإقليم البَنْغَال إلى مُحَمَّد بختيار خلجي قائد السُّلْطَان معز الدين مُحَمَّد الغوري منذ عام ٥٦٠٢ / ١٢٠٥م، واتخذ المسلمون لخنوتي عاصمةً لهم، وحكمها بعد ذلك سلاطين عدة، وتنقلت عاصمتها بين كور، وراج محل، ودكا، ومرشد آباد.

السِّند، ونشر الإسلام في كافة أرجائها في فترة قياسية لم تتجاوز السنوات الثلاث؟ كيف يواجه مُحَمَّد بن القاسم هذا المصير المؤلم ويُجْزَى ذلك الجزاء المهين؟ لقد تضاءلت أمام أعماله الحربية والسياسية عظمة الإسكندر المقدوني وشهرته، إذ بينما عجز الإسكندر قبل ألف عام عن الاستيلاء على قسم ضئيل من الهند كان سكانه أقل من ربع السُّكَّان، زمن ابن القاسم استطاع هذا الفتى أن يخضعها ويلحقها بالدولة الإسلامية من غير كبير عناء».

وقد قال مؤرخ إنجليزي: «لو أراد ابن القاسم أن يستمر بفتوحاته حتى الصين لما عاقه عائق، ولم يتجاوز أحد من الغزاة فتوحاته إلى أيام الغزنويين، لقد كان واحداً من عظماء الرِّجال في كل العصور».

ومهما يكن من أمرٍ فقد توقفت الفتوحات في جبهة السِّند بمجرد مغادرة مُحَمَّد بن القاسم البلاد، وانكمش المسلمون في المناطق التي تم فتحها من قبل، وتركت الأوضاع السياسية السيئة في عاصمة الخلافة - دمشق - تأثيرها على الاستقرار والأمن في شبه القارة الهندية، فقامت الثُّورات والفتن في بعض المناطق الخاضعة للمسلمين، وحاول بعض أمراء السِّند وملوكها الذين قد فروا إلى كشمير وغيرها العودة إلى البلاد، ونجح بعضهم في استعادة سُلْطانه ونفوذه، مستفيداً من الاضطرابات الداخلية في العالم الإسلامي.

ولمَّا تولى عَمْر بن عبدالعزیز (٩٩-١٠١ هـ / ٧١٧-٧١٩ م) كتب إلى ملوك السِّند يدعوهم إلى الإسلام والطاعة، فدخلت بلاد السِّند كلها في طاعة المسلمين، وأسلم أهلها وملوكها وتسموا بأسماء العرب، وبهذا أصبحت بلاد السِّند بلاد إسلام، ثم عادت واضطرب في أواخر بني أمية، إلى أن انتظمت في خلافة أبي جَعْفَر المَنْصُور العَبَّاسي (١٣٦-١٥٧ هـ / ٧٥٣-٧٧٣ م)، وفي أيامه افتتحت كشمير ودخلت في دولة الإسلام.

ثم إن الفتح الإسلامي للسِّند لم يكن فتحاً عسكرياً فحسب، وإنما - كما حدث في الجبهات الأخرى - تنقلت العشائر العربيَّة إلى هناك، وحمل العرب إلى البلاد أسلوبهم نفسه في الحياة، كما انتشرت الثقافة الإسلامية والعربيَّة في المُدن التي سُنْشَأ فيما بعد، ممَّا ساعد على نشر الإسلام والعربيَّة، بل هاجرت إلى الهند الصور الفكرية نفسها التي طبَّعت العالم الإسلامي في القرن الأول الهجري، كما انتقلت إليها فرق ودعايات الخروج والشَّيعة.



ضعف الخلافة:

يُعتبر الجيشُ الدعامَةُ الرئيسية التي اعتمد عليها الخلفاء العباسيون في تثبيت دعائم حكمهم، غير أن الصفة لهذا الجيش أخذت تضعف منذ عهد المأمون، حيث أنشأ فرقةً جديدةً اعتمد عليها، ثم إن العرب أخذوا يلتفون حول العباس بن المأمون ضد المعتصم الذي نكّل بزعمهم بعد توليه الخلافة وأساء الظن بهم^(١). شعّر المعتصم بأن موقفه أصبح حرجاً، ولذلك كان بحاجة إلى عنصرٍ حربي جديد يعتمد عليه في مواجهة الأخطار التي تجابهها الدولة، وأهمها ثورة بابك الخرمي وخطر البيزنطيين واعتداءاتهم المتوالية على حدود الدولة وتذمر أهل الشام ومصر^(٢).

استخدم المعتصم عنصر الأتراك، فقد استقدم عام ٢٢٠هـ / ٨٣٥م قوماً من بخارى سمرقند وفرانة وأشروسنة، ووصل عددهم إلى حوالي ١٨ ألف، وقد ميزهم المعتصم بلباس من الديباج عليه مناطق مذهبة^(٣)، وكانت أعدادهم تصل إلى عشرات الآلاف.

وقد ترتب على الاعتماد على الأتراك والإكثار منهم في الدولة نتائج وخيمة، إذ إن هذا العنصر رغم شجاعة عناصره العسكرية إلا أنه لا يفهم إلا الأسس المعنوية للدولة العباسية، وليست له خبرة في الإدارة^(٤).

لذلك فلا غرابة أن يكون ظهور الأتراك في الدولة سبباً في انتشار الفوضى وعاملاً من عوامل ضعف الدولة، فقد أحدثت تصرفات الجند الأتراك تدمراً لدى أهل بغداد، مما دفعهم إلى الثورة والاحتجاج لدى المعتصم على وجود جنده بينهم وهددوه بالحرب: «إما أن تخرج من بغداد، فإن الناس قد تأذوا بعسكرك أو نحاربك»^(٥). أدرك المعتصم الموقف وخطورته، فأخرج الأتراك من بغداد إلى مكان سامراء وبنى لهم مدينة سر من رأى سنة ٢٢١هـ / ٨٣٤هـ.

(١) الدوري: دراسات في العصور العباسية المتأخرة: ص ١٢.

(٢) مروج الذهب: ج ٤، ص ٥٣؛ ابن كثير: البداية والنهاية: ج ٩، ص ٣٣٨، القاهرة ١٩٣٩.

(٣) البداية والنهاية: ج: ص ٣٣٨؛ لوبون: حضارة العرب: ص ١٧٧.

(٤) دراسات في العصور العباسية المتأخرة: ص ١٢.

(٥) معجم البلدان: ب د، ص ١٤.



شكل (١٨) الخليفة المعتصم

وصل الأتراك في زمن الخليفة الواثق إلى مناصب قيادية في الجيش واعتمد عليهم في حكمه، حتى صاروا يتدخلون في الحكم، وقد أشار السيوطي إلى ذلك بقوله: (١) «إن الواثق كان أول خليفة استخلف اشناس التركي السلطة وألبسه تاجاً»، وقد منح هذا الخليفة الأتراك صلاحيات واسعة أدت إلى زيادة نفوذهم، ولا سيما عندما لم يتمكن من تعيين ولياً للعهد بعده، فجعل بذلك المجال مفتوحاً للأتراك للتدخل في اختيار الخليفة (٢)، وقد قوى نفوذ الجند الأتراك، ولا سيما القائد (إيتاخ) والقائد (وصيف) اللذين يرجع إليهما انتخاب المتوكل بعد وفاة أبيه الواثق، ومنذ ذلك الوقت أخذ نفوذهم يستفحل في جميع أجهزة الدولة وصار أمر اصطدامهم بالخليفة المتوكل أمراً منتظراً (٣).

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء: ص ٢٢٦.

(٢) الطبري: ج ١١، ص ٩ وما بعدها- إبراهيم بيضون: التاريخ السياسي للدولة العباسية، ص ٨٤.

(٣) الدوري: دراسات في العصور العباسية المتأخرة: ص ٤١.



ورغم أن المتوكل أيد جانب السنة والجماعة في القضاء على المعتزلة ليكسب تأييد الناس ضد القادة الأتراك والوقوف في وجه طموحاتهم السياسية، إلا أن سياسة اضطهاد أصحاب المذاهب الأخرى ومطاردة العلويين والتكيل بهم وبأنصارهم ومصادرة أموالهم قد أدت إلى سوء التفاهم بين العباسيين والعلويين، وجلبت سخط كثيراً من الناس، فغطت هذه السيئة جميع حسناته»^(١).

ورغم أن المتوكل قد حاول السيطرة على أمور الدولة، ونجح إلى حد كبير، إلا أن نهايته كانت على يد الأتراك، فكانت نهاية المتوكل بداية النهاية لسلطة الخليفة العباسي، حيث صار صنع القادة العسكريين الأتراك يعزلون ويقتلون من أرادوا بقوة سيوفهم. ويرى أحمد شلبي^(٢) أن نقل المتوكل فاتحة عهد أسود للخلافة العباسية، حيث استمر هذا الأسلوب طيلة عهد الأتراك، واستمر فيما بعد إلى عهد البويهيين، حيث تعرض الخلفاء خلال هذين العهدين إلى سمل العيون، وإلى القتل والتعذيب، وكان خلع الخلفاء أسهل ما ينزل بهم من الأذى، وقليل من الخلفاء من نجا من هذا المصير.

ولم يبق للخلفاء بعد مقتل المتوكل شيء. يقول ابن طبطبا^(٣): «استولى الأتراك منذ مقتل المتوكل على المملكة، واستضعفوا الخلفاء، فكان الخليفة في يدهم كالأسير، إن شاؤوا أبقوه، وإن شاؤوا أخلعوه، وإن شاؤوا قتلوه».

ولم يبق للخلفاء بعد مقتل المتوكل شيء. يقول ابن طبطبا^(٤): «استولى الأتراك منذ مقتل المتوكل على المملكة، واستضعفوا الخلفاء، فكان الخليفة في يدهم كالأسير، إن شاؤوا أبقوه، وإن شاؤوا أخلعوه، وإن شاؤوا قتلوه».

نتج عن نفوذ الأتراك انتشار الفوضى والاضطراب الشديد، فاقتربوا الفضايح، وانحطت هيبة الخلافة، فتجرأ أمراء الأقاليم على الانفصال ولا سيما في إيران ومصر، كما فقدت الوزارة هيبتها، واختلت الإدارة وأصبح المجال مفتوحاً لظهور التيارات الثورية الاجتماعية المكبوتة، وكادت أن تقضى عليها^(٥) مثل ثورات القرامطة

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٧، ص ٤١.

(٢) أحمد شلبي: التاريخ الإسلامي، ج ٤، ص ٢٩.

(٣) ابن طبطبا: الفخرى في الأدب السلطانية: ص ١٨١.

(٤) ابن طبطبا: الفخرى في الأدب السلطانية: ص ١٨١.

(٥) عبدالكريم غرايبة العرب والأتراك: ص ٨.

وحركة الزنج، لقد استبد الأتراك - كما ذكرنا - بالخلفاء بعد المعتصم، وبالغوا في كسر شوكتهم وكف أيديهم عن السلطة، وكان من قبلهم الفرس قد ازدادوا قوة في عهد المأمون، وصاروا يتدخلون في السلطة العباسية عندما اعتمد عليهم في إدارة الولايات الشرقية، فلما استبد الأتراك بالأمر أدرك الفرس أن سلطتهم قد ذهبت، وأن نفوذهم تلاشى في دار الخلافة، فاستعاضوا عن ذلك بالانفصال عن الدولة والاستقلال باماراتهم.

وقد كثرت الحركات المعارضة للدولة في المشرق الإسلامي بشكل واضح خلال القرن الثالث الهجري، فقامت دويلات مستقلة فارسية وتركية أشهرها: الدولة الأموية في الأندلس (١٣٨-٣٩٧هـ / ٧٥٦-١٠٩٢م) على يد عبدالرحمن بن معاوية بن هشام بن عبدالملك (الملقب بالداخل)

وتأسست دولة الإدارة في المغرب الأقصى (١٧٢-٣١١هـ / ٧٨٨-٨٣٢م) على يد إبراهيم بن الأغلب

وظهر الطولونيون (٢٥٢-٢٩٢هـ / ٧٨٨-٨٣٢م) على يد إبراهيم بن الأغلب، وظهر الطولونيون (٢٥٢-٢٩٢هـ / ٨٦٨-٩٠٥م)، والإخشيدويون (٣٢٣-٣٥٨هـ / ٩٣٥-٩٦٩م) والفاطيون (٣٥٨-٥٦٧هـ / ٩٦٩-١١٧١م) في مصر.

وفي المشرق الإسلامي قامت الدولة الطاهرية (٢٠٥-٢٥٩هـ / ٨٢٠-٨٧٢م) في خراسان، وبعدها الدولة الصفارية (٢٥٤-٢٩٠هـ / ٧٦٨-٩٠٣م) على يد يعقوب بن الليث الصفار، والدولة السامانية (٢٦٧-٣٨٩هـ / ٨٧٣-٩٩٩م) التي تفرعت عنها الدولة الغزنوية (٣٥١-٥٨٢هـ / ٩٦٢-١١٣٦م) في أفغانستان والهند.

ويلاحظ أن المشرق الإسلامي كان بالنسبة للخلافة العباسية هو المعين الخصب



الذي تستمد منه قوتها وأنظمتها منذ بداية نشر دعوتها، لهذا حدث ارتباطاً بين المشرق والخلافة يقوم على الولاء لها حتى في أقوى فترات ضعفها، ويلاحظ ذلك بصورة واضحة في حرص هذه الدول التي استقلت على إعلان تبعيتها وولائها عن طريق الدعاء للخليفة على المنابر، وكتابة اسمه على النقود والباب الجزية إلى بغداد في كل عام، وهذا عكس دول المغرب التي استقلت تماماً عن الخلافة مثل الأدارسة والأمويون في الأندلس وغيرهم.

إن هذه الحركات الانفصالية التي قامت في المشرق والمغرب الإسلامي قد أثرت على وحدة الدولة الإسلامية، لكنها في الوقت نفسه كان لها أثر كبير في تقديم الحضارة الإسلامية، حيث ظهر في كل منها مراكز حضارية تنافس بغداد مثل قرطبة والقاهرة وبخارى، وصار كلٌّ منها قبلة للعلماء والأدباء والشعراء والكُتّاب ينتقلون بينها، ويُعَدِّق عليهم أمراء هذه الدول الكثير، وفيما يلي لمحة عن كل من الدولتين السامانية والغزنوية (١).



شكل (١٩) قيام الدولة العباسية

(١) تاريخ المشرق الإسلامي من القرن الخامس وحتى القرن السابع الهجري: الدكتور: جميل بيضون، شحادة الناظر، أحمد عودات، إربد، مكتبة دار الأمل، ١٩٨٩، ص ٩ : ١٣.



شكل (٢٠) حدود الدولة العباسية



شكل (٢١) الدولة العباسية في أقصى اتساعها



تدريبات الفصل الثاني



حدد صواب أو خطأ العبارة التالية:

(١) ينتمي الهياطلة والنجتيين إلى الأتراك الغزية:

○ صواب

○ خطأ

(٢) استطاع القائد محمد بن القاسم أن يفتح جرجان:

○ صواب

○ خطأ

(٣) وصل الأتراك في عهد الخليفة الواثق إلى مناصب قيادية في الجيش:

○ صواب

○ خطأ

اختر الإجابة الصحيحة مما يلي:

(٤) هو من قادة الحجاج بن يوسف الثقفي قام بفتح مدينة كاش:

○ المهلب بن صفرة

○ قتيبة بن مسلم

○ محمد بن القاسم

(٥) القائد الذي فتح بخارى هو:

○ قتيبة بن مسلم

○ يزيد بن المهلب

○ المهلب بن صفرة

(٦) أول خليفة يستخلف أشناس التركي السلطة هو:

○ الخليفة المتوكل

○ الخليفة المعتصم

○ الخليفة الواثق





الفصل الثالث
الدول المستقلة في المشرق الإسلامي



الفصل الثالث

الدول المستقلة في المشرق الإسلامي

الأهداف:

عزيزي الطالب .. بعد الإنتهاء من دراسة هذا الفصل ينبغي عليك أن تكون قادراً على أن:

- (١) تشرح قيام الدولة الطاهرية.
- (٢) تشرح قيام الدولة الصفارية.
- (٣) تذكر عوامل زوال الدولة السامانية.
- (٤) توضح أثر الدولة السامانية في الحضارة العربية الإسلامية.

الدولة الطاهرية:

(٢٠٥-٢٥٩هـ / ٨٢٠-٨٧٢م):

تُنسب هذه الدولة إلى طاهر بن الحسين، والطاهريون ينتمون إلى أصل فارسي، وكانت لهم مكانةٌ ونفوذٌ قويٌّ على خراسان قبل عهد المأمون. وقد كان طاهرٌ واحداً من كبار قواد المأمون، لعب هو وابنه عبدالله دوراً خطيراً في النزاع الذي دب بين الأمين والمأمون فعاونوا المأمون معاونة صادقة حتى تم له الانتصار على أخيه، واعترف المأمون لهما بهذا الجميل فقام بتعيين طاهر والياً على الجزيرة ورئيساً لشرطة بغداد، ولم يرض طاهر بهذا التعيين، فقد كان يطمع في توليه ولاية خراسان، وقد تمكن في النهاية من تحقيق مسعاه بمساعدة الوزير أحمد بن أبي خالد، حيث اتخذ من نيسابور عاصمة لدولته، ولكنه قام بعد توليه بقطع الخطبة للخليفة العباسي، معلناً استقلاله عن سلطانه في بغداد، غير أنه مات فجأة في نفس العام (٢٠٧هـ / ٨٢٢م) وقيل أن المأمون كان وراء هذا الموت المفاجيء، ولكننا نجد أن المأمون يقوم بتعيين طلحة بن طاهر في مكان أبيه، وتذكر المصادر أنه أقدم على ذلك مدفوعاً بعاملين أولهما أنه ربما أراد أن يقضى على الشكوك التي حامت حول دوره في موت طاهر المفاجيء، وثانيهما أنه ربما اضطر إلى ذلك لأن بنى طاهر كانوا يتمتعون بنفوذ قوي في خراسان، فلم يتمكن المأمون من وضع وال آخر من غير الأسرة الطاهرية.

وقد أصبح الحكم وراثياً في تلك الدولة، إذ أنه بعد وفاة طلحة خَلَفَهُ أخوه عبدالله بموافقة المأمون كذلك، وقد وصلت الأسرة في عهد عبدالله هذا إلى أوج قوتها ونفوذها، حتى أن الخليفة المعتصم لم يكن راضياً على عبدالله، ولكنه لم يجرؤ على عزله، وإنما لجأ إلى المؤامرات السرية للقضاء عليه، وقد كشف عبدالله سر هذه المؤامرات، فلم يعطن العصيان، ولم يقم بالانفصال التام عن الدولة العباسية، وذلك لأنه شعر أنه ما دام مقيماً في وطنه بين أهله وذويه، فهو في مأمن من مؤامرات العباسيين^(١).



شكل (٢٢) الدولة الطاهرية

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ٧، ص ٧٧-٧٩.



وقد حاول الخليفة العباسي الواثق أن يعين والياً على خراسان بعد وفاة عبدالله من غير الأسرة الطاهرية، ولكنه لم يتمكن من ذلك واضطر إلى الموافقة على تولية طاهر بن عبدالله ثم محمد بن طاهر، الذي كان آخر من تولى الحكم من هذا البيت، إذ خلفه على حكم خراسان يعقوب بن الليث الصفار (في سنة ٢٥٩هـ / ٨٧٢م) مؤسس الدولة الصفارية، وقد كان الطاهريون حكماً مصلحين اهتموا بأحوال الشعب في خراسان، وعملوا على إصلاح الزراعة ونشر التعليم، ورفع الظلم عن كاهل الطبقات الدنيا، حتى أنه يؤثر عن عبدالله بن طاهر أنه أوصى عماله بمراعاة الفلاحين ومصالحهم وقال لهم أن الله يطعمنا بأيديهم ويرحمنا بدعائهم ويمنع الإساءة اليهم .

ولم يكن استقلال الدولة الطاهرية عن بغداد استقلالاً تاماً، ولكنه كان استقلالاً ذاتياً، فظلوا يدينون بالولاء للخليفة العباسي، ويخطبون باسمه، ويرسلون إليه الأموال السنوية، وقدموا للعباسيين مساعدات عظيمة لإخماد بعض القوات، فعلى سبيل المثال نجد أنه في عهد الخليفة المعتصم ثار في خراسان محمد بن القاسم العلوي، فقام عبدالله بن طاهر بقتاله وأسرته وبعث به إلى المعتصم، كذلك فقد ثار في عهد المعتصم أيضاً المازيار بن قارن في طبرستان، فقام عبدالله بن طاهر كذلك بتقديم المعونة لجند الخليفة لإخماد ثورتهم، وقد قدر العباسيون للطاهريين ذلك، فعاونوهم في نزاعهم ضد الصفاريين، كما أبقوا شرطة بغداد في أيديهم إلى سنة ٣٠١هـ / ٩١٣م.

الدولة الصفارية : (٢٥٤-٢٩٠هـ / ٨٦٧-٩٠٣م):

انتشر مذهب الخوارج في ولاية سجستان، وكانت تحت حكم الدولة الطاهرية، واشتد بأسهم إلى الدرجة التي عجز معها الطاهريون عن إخضاعهم، فكونت فرق من المتطوعة على رأسهم صالح بن أنضر الكنانى السجستاني لقتال هؤلاء الخوارج، وكان من بين قاداته يعقوب بن الليث الصفار الذى قام بتأسيس الأسرة الصفارية، وقد عرف يعقوب باسم الصفار لأنه بدأ حياته صانعاً للصفراء أى النحاس بأجر متواضع قدره ١٥ درهماً فى الشهر.



شكل (٢٣) ولاية سجستان

ولما توفى صالح بن أنضر تولى قيادة المتطوعة درهم بن الحسين وظل يعقوب إلى جانبه يعاونه فى حروبه ضد الخوارج، وقد ازداد نفوذ هؤلاء المتطوعة فى سجستان حتى اضطروا إليها أن يتخلى عن منصبه فتولاهم درهم ابن الحسين، ولما كانت شخصية يعقوب أقوى من درهم فقد أعجب به الجند واختاروه زعيماً لهم، ولم يبد درهم أى معارضة بل انسحب تاركاً الأمر ليعقوب الذى أصبح زعيماً للجند ووالياً لسجستان، وقد تمكن من الخوارج ونشر السلام والأمن فى ربوع البلاد، كما نجح فى أن يمد نفوذه إلى ما يجاوره من الأقاليم، ثم بعث إلى الخليفة العباسى بهدية، وعمل على تحسين علاقته بالدولة العباسية حتى يتمكن من توطيد أركان دولته.



ثم ازدادت مطامع يعقوب فبدأ يفكر في ضم فارس اليه، فبعث إلى الخليفة العباسي يطلب منه أن يعهد بولايتها اليه، وفي تلك الفترة طلب علي بن الحسين أحد عمال بني طاهر من الخليفة أن يوليه على كرمان، وفكر الخليفة أن يضرب الرجلان كل منهما الآخر فأصدر أمره بتولى كل منهما على كرمان، وتمكن يعقوب بن الليث من الحاق الهزيمة بعدوه وأسرته ودخل شيراز وصلّى بها الجمعة ودعى للخليفة العباسي المعتز في عام ٢٥٦هـ / ٨٦٩م. واصل يعقوب العمل على توسيع رقعة ملكه، ثم شجعه ضعف حكام خراسان من الطاهريين على التفكير في التقدم لفتحها مدعياً أن محمداً بن طاهر قد أوى أحد أتباعه الهاريين، وتمكن يعقوب بالفعل من دخول نيسابور عاصمة الدولة الطاهرية، عام ٢٥٩هـ / ٨٧٢م في عهد الخليفة العباسي المعتز.

وقام بأسر محمد بن طاهر وبهذا سقطت الدولة الطاهرية، وأصبح يعقوب يحكم خراسان وسجستان وكرمان وفارس^(١).

وبعث يعقوب إلى الخليفة العباسي يطلب منه اصدار تقليد بالولاء لحكم هذه المناطق، ولم يوافق الخليفة على هذا الطلب، بل أمره بالانصراف عن خراسان والعودة إلى ولايته، ولكن يعقوب تحدى أوامر الخليفة ولم يذعن لأوامره بل وتقدم بجيوشه إلى طبرستان بغية توسيع ممتلكاته، واشتبك واليها الحسن بن يزيد في عدد من المواقع، وانتصر عليه، وإن كان لم يتمكن من إتمام فتح هذا الإقليم بسبب الظروف الجوية ووعرة الطريق هناك.

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، ج٣، ص ٢١٠-٢١١.

وفي سنة ٢٦٠هـ / ٨٧٣م أعلن الخليفة العباسي المعتمد أن يعقوب مغتصب وخارج عن طاعة الخلافة، فأعلن يعقوب الثورة وتحدى الخليفة وتقدم بجيوشه نحو الأهواز، وأدت تلك الأحداث إلى اضطراب الخليفة فأعلن موافقته على تولية يعقوب على خراسان وطبرستان وكرمان والرى وفاس وشرطة بغداد، ولم يفتع يعقوب بهذا بل استمر في ثورته على الخليفة وأعلن أنه سيستمر في تقدمه نحو العراق.

إزاء هذا لم يجد الخليفة بدأً من الخروج بنفسه للقتال، وصحب معه أخاه محمد الموفق كقائد للجيش، وعندما التقى الطرفان ورأى جنود يعقوب المعتمد، تركوا صاحبهم وانضموا إليه فدارت الهزيمة على يعقوب في سنة ٢٦٢هـ / ٨٥٧م، وارتد إلى نيسابور، وتوفي يعقوب بعد سنة ٢٦٢هـ / ٨٥٧م تاركاً الأمر لأخيه عمر بن الليث.



شكل (٢٤) قتال الخليفة المعتمد ليعقوب بن الليث

من هذا نرى أن يعقوب كان يحرص على أن تكون علاقته بالخلافة العباسية علاقة طيبة، ثم ساءت تلك العلاقة في أواخر عهده إلى حد بعيد، وتذكر المصادر أن الخليفة العباسي بعث إلى يعقوب بعد أن ألحق به الهزيمة برسول يسترضيه ويقلده حكم فارس وأعمالها فلما أبلغه رسالة الخليفة، أمر يعقوب بإحضار سيف ورغيف وبصل، ثم أمر باستدعاء الرسول، فلما حضر جلس له وقال: قل للخليفة أنى عليل فإن مت فقد استرحت منك واسترحت منى، وإن عوفيت فليس بينى وبينك إلا هذا السيف حتى اخذ بثأرى أو تكسر بي فتفقرنى، فأعود إلى هذا الخبز والبصل، وعاد الرسول وأبلغ هذا القول إلى المعتمد، ولكن القدر لم يمهل يعقوب إذ توفى بعد ذلك بقليل وخلفه كما ذكرنا أخاه عمرو بن الليث^(١).

عمل عمرو بن الليث على تحسين علاقاته بالخليفة قاصداً الأخير تقليداً بتوليته على خراسان وفارس وسجستان وكرمان والسند، وتعيينه حاكماً عسكرياً لبغداد وسامراء.

ثم ساءت العلاقات بينه وبين الخليفة، فقد أبدى الموفق ولى العهد رغبته فى استرداد فارس ورفض هذا الطلب، فجمع الخليفة المعتمد فى سنة ٢٧١هـ / ٨٨٥م حجاج خراسان، وقرأ عليهم كتاباً يعزل عمرو من ولايته، كما أصدر أوامره ببلغه على المنابر، وتقدم الموفق بعد ذلك بسنتين بجيوشه لقتال عمرو، وتمكن من هزيمته وفتح فارس، وإن كان قد عاد ووافق على توليته على كل ولاياته فى سنة ٢٧٥هـ / ٨٨٩م، ولما ولى المعتمد الخلافة سنة ٢٧٩هـ / ٨٩٢م اعترف بولاية عمرو وبعث إليه بتقليد يفيد هذا. اتجه نظر عمرو بعد ذلك إلى فتح إقليم ما وراء النهر، وكان يحكم هذا الإقليم فى ذلك الوقت السامانيون، وكانوا على درجة كبيرة من القوة، وأرسل عمرو إلى الخليفة يطلب منه أن يساعده على تملك هذا الإقليم، وهنا حانت الفرصة التى كانت الخلافة فى انتظارها كي تضرب الصفاريين بالسامانيين فأسرع الخليفة بالموافقة، وأصدر كتاباً بعزل إسماعيل بن أحمد الساماني عن السامانيين فأسرع الخليفة بالموافقة، وأصدر كتاباً بعزل إسماعيل بن أحمد الساماني عن بلاد ما وراء النهر، وتولية عمرو بن الليث مكانه، ثم بعث إلى عمرو فى نيسابور برسول يحمل إليه الهدايا ومعها التقليد بتوليته، فلما وضع التقليد فى يد عمرو سأل: ما هذا؟ فقال الرسول: هذا ما سألته. فقال عمرو: وماذا أصنع به؟ فإن إسماعيل بن أحمد لا يسلم إلى ذلك إلا

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى، ج ٣، ص ٢١٠-٢١١.

مائة ألف سيف فقال الرسول : أنت سألته، فسر الآن لتتولى العمل في ناحيته^(١). وخرج عمرو بجيشه في سنة ٢٨٧هـ / ٩٠٠م ليحقق هدفه في الإستيلاء على بلاد ما وراء النهر، ولكنه هزم هزيمة شنعاء ووقع أسيراً في يد أعدائه الذين أرسلوه إلى بغداد حيث قتل هناك.

من هذا نرى أن الصفاريين كانوا يتأرجحون في علاقتهم بالخلافة بين الثورة والولاء وإن كانوا في الحقيقة يمثلون النزعة الفارسية الاستقلالية فيعقوب بن الليث كان أول وال ذكر اسمه في الخطبة بعد اسم الخليفة، وكان أول والٍ نقش اسمه على السكّة، كذلك لم تواظب الدولة الصفارية على دفع الأموال السنوية للخلافة، وبهذه المظاهر الثلاث كانوا أول من عمل على الحد من سلطان الخلافة في بلاد فارس.



شكل (٢٥) سك العملة في عهد عمرو بن الليث

(١) ابن الأثير: الكامل، ج٧، ص٢٨٨، ٢٩٠-٢٩٢، ٣٢٥-٣٢٦.



شكل (٢٦) الدولة الصفارية

الدولة السامانية :

(٢٦١ - ٢٨٩ هـ / ٨٧٤ - ٩٩٩ م):

تَنَسَّبُ الدولة السامانية إلى (سامان)، الذي رُوِيَ أنه ينحدر من نسل الساسانيين، وأن نسبه يرجع إلى الملك الساساني بهرام جور أو بهرام الخامس الذي توفي سنة ٤٣٩ م، وهم من عائلة نبيلة في بلخ^(١)، وقد أسس سامان إحدى القرى في منطقة بلخ فسميت باسمه^(٢)، وقد اعتنق جدهم سامان الإسلام حوالي سنة ١٢١ هـ في خلافة هشام بن عبد الملك على يد والي الأموي أسد بن عبد الله وسمى ابن أسد^(٣).

ويبدو أن أسداً لم تكن عنده مواهب ذات أهمية، مما جعل المؤرخون لا يُدَوِّنون عنه شيئاً، اللهم إلا ما كان مرتبطاً باسم أبيه أو أحد أبنائه^(٤).

وقد سَطَعَ نجم أبناء أسد في خلافة المأمون، فعرف منزلتهم وأمر غسان ابن عباد (٨١٩-٨٢١ م) - واليه على خراسان - أن يُعَيِّن هؤلاء الأبناء في وظائف رفيعة المستوى تقديراً لجهودهم، فَعَيَّن نوحاً على سرقند، وأحمد حاكماً لفراغانة، ويحيى حاكماً على الشاشي وأشروسنة، وإلياس حاكماً على هرات^(٥).

وكان هؤلاء قد نالوا السلطة في مناطق ضمها حكم الطاهريين، فلما ولي طاهر ابن الحسين بلاد خراسان أقرهم في هذه الأعمال^(٦)، وعندما تُوفى إلياس سنة ٥٢٤ / ٨٥٦ م فَعَدَّ السامانيون هرات، ولكنهم حافظوا على سلطانهم في ما وراء النهر^(٧).

وقد عاش أحمد أكثر الأخوان عمراً، رغم أنه أحدثهم سناً، فبعد وفاة أخيه نوحاً سنة ٢٢٧ هـ / ٨٤٢ م صار إليه حُكْم سرقند، كما امتد سلطانهم فشمَل الشاش وأشروسنة بعد وفاة أخيه يحيى سنة ٢٤١ هـ / ٨٥٥ م، وأصبح أحمد بذلك حاكماً

(١) حتى: تاريخ العرب (مطول): ص ٤٦٢.

(٢) عبدالعزيز الدوري: دراسات في العصور العباسية المتأخرة: ص ١٢٠.

(٣) النرشخي: تاريخ بخارى، ص ٨٦.

(٤) كان أبناء أسد: إلياس ونوح ويحيى وأحمد. (أحمد شلبي: تاريخ الحضارة الإسلامية: ج ٨، ص ٧١).

(٥) بركلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية: ج ٢، ص ١١٣.

(٦) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام: ج ٣، ص ٧٣؛ أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي: ج ٨، ص ٧١.

(٧) الدوري: دراسات في العصور العباسية المتأخرة: ص ١٢١.



على المناطق التي كانت تحت حكم إخوته في ظل الطاهريين^(١). وعندما سقط الطاهريون على يد الصفاريين سنة ٢٥٩ هـ / ٧٧٢ م بقي أحمد في حكمه خاضعاً للصفاريين، الذين كانوا مشغولين بالصراع مع الخلافة العباسية، وعندما توفي أحمد سنة ٢٦١ هـ / ٩٦٤ م أصبح ابنه نصرّ رئيساً للأسرة السامانية، واتخذ سمرقند مركزاً له، وفي سنة ٨٧٤ م



شكل (٢٧) الدولة السامانية

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ: ج٧، ص ٢٧٩ وما بعدها.

ضم السامانيون بخارى حيث اصطحب إسماعيل وأسند إليه حكمها بالنيابة عنه، وفي سنة ٨٧٥هـ حصل نصرٌ على عهدٍ من الخليفة المعتمد العباسي بولاية ما وراء النهر بكاملها^(١).

واستطاع إسماعيل أن يقضى على عصابات اللصوص التي كانت تتألف من الفلاحين المتذمرين، كما عمل على استرضاء النبلاء دون أن يعتمد عليهم، فلما قوى مركزه تسرب الشك إلى نفس أخيه نصر من تصرفاته، وسرعان ما شب النزاع بين الأخوين (إسماعيل ونصر)، واشتبكا في حربٍ كان النصر فيها لإسماعيل، ووقع فيها نصرٌ أسيراً في يد أخيه سنة ٢٧٥هـ / ٨٨٨م، فعامله بكل احترام، وصفح عنه وأثر أن يعطيه السلطة^(٢)، وخاطبه كرئيس، ثم رجع إلى سمرقند وظل يحكمها كرئيس للأسرة السامانية، وعمل إسماعيل تحت سلطة أخيه حتى مات نصر سنة ٢٧٩هـ / ٨٩٤م.

ولما توفي نصرٌ آلت زعامة السامانيين إلى أخيه إسماعيل - الذي يعتبر المؤسس الحقيقي للدولة السامانية - ففي عهده تحولت الإمارة السامانية إلى مملكة، وأصبحت بخارى عاصمة المملكة، ولذلك يقول عنه النرشخي^(٣): «إنه أول السلاطين السامانيين».

وقد عمل إسماعيل على تدعيم نفوذ الدولة السامانية وتوسيعها، فقام بعدة أعمالٍ منها:

١- قام إسماعيل بحملةٍ عسكريةٍ كبيرةٍ ضد جيرانه المسيحيين (ناروز) الذين كانوا يهاجمون المناطق الإسلامية بين الحين والآخر، وحقق انتصاراً عليهم، ونتج عن ذلك أن اعتنق الإسلام كبار قادة هذه البلاد^(٤)، واقتدت بهم الجماهير، وحُوِّلت الكنيسة الكبرى إلى مسجدٍ، وأُعلنت الخطبة باسم الخليفة العباسي^(٥).

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ: ج ٧، ص ٢٨.

(٢) النرشخي: تاريخ بخارى: ص ١١٥.

(٣) تاريخ بخارى: ص ١١٥-١٧٦.

(٤) أحمد شلبي: الموسوعة التاريخية الإسلامية: ج ٨، ص ٧٣.

(٥) النرشخي: تاريخ بخارى: ص ١١٧.

٢- قام إسماعيلٌ بمحاربة محمد بن زيد العلوي الذي كانت له السلطة في طبرستان، وانتصر عليه وضم طبرستان إلى الدولة السامانية.

٣- قام إسماعيل بحروبٍ عظيمةٍ ضد عمرو بن الليث الصفاري، الذي خلف أخاه يعقوب، واستطاع إسماعيل أن ينتصر على عمرو، وأرسله أسيراً إلى بغداد، حيث قتلته الخليفة (١)، وقد كافأ الخليفة العباسي إسماعيل على أعماله، فَعَيَّنَه حاكماً على خراسان بالإضافة إلى ما كان تحت حكمه، وكذلك بالإضافة إلى تركستان وجرجان وبعض المناطق الهندية، وأصبح مُلك السامانيين يشمل ما وراء النهر وخراسان وجران وسجستان وطبرستان وكرمان والرِّي، فبلغت الدولة بذلك قمة اتساعها، وحافظ السامانيون على العلاقة الحسنة مع الخلافة العباسية، ويقول النرشخي عن إسماعيل الساماني: «إنه يُظهر الطاعة دائماً للخلفاء، ويرى متابعتهم واجبة لازمة» (٢).

ومما قام به إسماعيل يُظهر أن عهده يُعتبر أفضل العهود السامانية، مما دعا إلى اعتباره المؤسس الحقيقي للدولة السامانية.

وقد وصفه ابن الأثير (٣): أنه «كان عاقلاً عادلاً حسنَ السيرة في رعيته حليماً...» (٤) ولم يظهر بعد إسماعيل أميرٌ قديرٌ من السامانيون، ولكن حُسن إدارتهم واستقرار حكمهم في بلاد ما وراء النهر مَنَّهم من المحافظة على ملكهم مائة سنة، فأقر الخليفة المكتفي أبانصر أحمد بن إسماعيل على ولاية أبيه (٥) أحمد بن إسماعيل سنة ٢٩٥ هـ وخلع عليه، وقد تم على يديه زوال الدولة الصفارية، فأسر غلامه سيمجور سبك البكري غلام عمرو بن الليث الصفاري، كما أسر الليث بن علي الصفاري، وفي هذه السنة (٢٩٥ هـ) تمكَّن السامانيون من الاستيلاء على سجستان، من المعدل ابن علي بن الليث الصفاري، وأسر أخاه محمد بن الليث، وبعث بسبك ومحمد إلى بغداد (٦).

(١) حتى: تاريخ العرب: ص ٤٦٢؛ محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية: ص ٨٢.

(٢) النرشخي: تاريخ بخارى: ص ١٠٧.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ: ج ٧، ص ١٠٠.

(٤) المصدر نفسه: ج ٨، ص ٢-٣.

(٥) انظر الطبري: ج ٨، ص ٢٤٩.

(٦) الطبري: ج ١٢، ص ١٩.

لم تطل ولاية أحمد بن إسماعيل، فقد هجم عليه بعض غلمانه وقتلوه سنة ٣٠١ هـ، فحُمِلَ إلى بخارى، ودُفِنَ بها، ولُقِّبَ بالشهيد^(١).

فخلفه ابنه نصر الثاني - وكان في الثامنة من عمره - فاستصغر الناس عمره واستضعفوه، واعتقدوا أن أمره لا ينتظم مع وجود عم أبيه إسحق بن أحمد بن أسد صاحب سمرقند الذي استمال أهالي بلاد ما وراء النهر إليه وإلى أولاده، وتنافس أمراء البيت الساماني على السُّطَّة فبعث الحق بعض أمراء البيت الساماني إلى الخليفة العباسي المقتدر يسأله كل منهم إمرة ناحية من نواحي خراسان، ولكن الخليفة وافق على أن يلي نصر بلاد أبيه، ووافق على اللقب الذي تَلَقَّبَ به وهو السعيد، وضبط بلاده أبو عبدالله محمد بن أحمد الجيهاني^(٢).

على أن ذلك لم يمنع بعض أفراد البيت الساماني من الخروج على نصر ومحاربتة طمعا في بسط سلطانهم على بعض نواحي دولته، فأوقعت جيوشه بهم الهزيمة^(٣).

وكان دعاة الإسماعيلية في فارس وشرق الدولة الإسلامية يبذلون جهوداً كبيرةً لاستمالة كبار الأمراء إلى زعيمهم عبيدالله المهدي، ومن هؤلاء الدعاة أبو عبدالله بأن أحمد النسفي الذي تمكن من أن يضمَّ إلى الإسماعيلية كثيرًا من أهالي خراسان، ولم يكتفوا بما حققوه من نجاح في هذا الإقليم، بل اجتازوا نهر جيحون واتجه إلى بخارى، حيث لقي مساعدةً من بعض كبار رجال الدولة السامانية، وبفضل هؤلاء استطاع النسفي الوصول إلى نصر بن أحمد الساماني الذي رَحَّبَ بمبادئته ودَعَاه لمقابلتة.

وكان نصر بن أحمد من أكبر المعارضين للمذهب الإسماعيلي، فقبض على أشقاء النسفي الحسين بن علي المروزي وسجنه وظل في سجنه حتى توفي^(٤)، لكن النسفي استطاع بحسن سياسته ودهائه أن يستميل نصر بن أحمد إلى جانب الخليفة الفاطمي عبيدالله المهدي، فطلب منه دية استأذنه فأجاب الأمير نصر طلبه، وأرسل النسفي الدية إلى عبيدالله المهدي ليبرهن له على إخلاص نصر للدعوة الإسماعيلية^(٥)، ويدل على ميل نصر بن أحمد الساماني إلى الدعوة

(١) انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ: ج ٨، ص ٢٧.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ: ج ٨، ص ٢٨؛ حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام: ج ٣، ص ٧٥.

(٣) المصدر نفسه: ج ٨، ص ٤١.

(٤) محمد جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية: ص ٨٣.

(٥) ابن النديم: الفهرست، ص ٢٦٦.

الإسماعيلية الكتاب الذي أرسله إلى عبيدالله المهدي يعترف بسلطته الروحية ويعد بإمداده بالرجال، وقد قال في كتابه: «أنا في خمسين ألف مملوك يطيعونني وليس على المهدي بهم كلفة ولا مؤنة، فإن أمرني بالمسير سرت إليه، ووصف بسيفي ومنطقتي بين يديه وامتثلت أمره»^(١).

ازداد نفوذ الأدي أبي عبيدالله محمد بن أحمد النسفي في عهد نصر الساماني، حتى أصبح صاحب الأمر والنهي في دولته، فاستغل هذا المركز لمضاعفة جهوده في نشر الإسماعيلية، مما أثار عليه حفيظة كبار الدولة السامانية من السنيين، وبخاصة بعض القواد والعلماء الذين أخذوا يكيدون له ولأنصار المذهب الإسماعيلي، ولما أدرك نصر الخطر المحدق به من قواده السنيين نزل عن الإمارة لابنه نوح، الذي وجّه اهتمامه إلى القضاء على الدعوة الإسماعيلية وأنصارها في بلاده، فدعا الفقهاء لمناظرة النسفي، فلما تغلبوا عليه بحججهم، أمر بقتله، وقُتل الكثير من القواد الذين دخلوا في المذهب الإسماعيلي سنة ٣٣١ هـ.

نوح بن نصر ٣٣١-٣٤٣ هـ:

تولى نوح بن نصر بلاد خراسان وما وراء النهر سنة ٣٣١ هـ، وبدأ حكمه بالعفو عن بعض الأمراء الذين كان يحقد عليهم في حياة أبيه ليأمن خروجهم عليه، وليتألف قلوبهم، وولاهم بعض الولايات، وفي أيام نوح بدأ الصراع بين السامانيين والبويهيين، ومنذ منتصف القرن الرابع الهجري أخذت بوادر الانحلال تظهر في الدولة السامانية بسبب وقوع النزاع بين أفراد البيت الساماني، وضعف الأمراء السامانيين وخروج القواد والعمال عليهم، وتطّلع البويهيين إلى امتلاك بلادهم.

وعمل نوح بن نصر على استرداد الرّي من يد ركن الدولة بن بويه، وانتهى بهزيمة جيوش نوح بسبب انضمام جنده إلى البويهيين، غير أن نوحاً أعدّ قوة جديدة لمحاربة ركن الدولة، واستطاع في سنة ٣٣٣ هـ الاستيلاء على الرّي وعلى بلاد الجبل^(٢).

وقد خرج نوح بن محتاج الذي أخلص له ولأبيه من قبل^(٣)، إلا إن الجند راسلوا إبراهيم بن أحمد بن إسماعيل عم نوح بن نصر، وكان قد انضم إلى ناصر الدولة بن حمدان، وطالبوه بالحضور لمبايعته فأجابهم إلى طلبهم، وقد قامت الحرب بين

(١) محمد جمال سرور: تاريخ الحضارة، ص ٨٤.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ: ج ٨، ص ١٥٨-١٥٩.

(٣) ابن الأثير: ج ٨، ص ١٦٤.

نوح من جهة وبين أبي علي وإبراهيم بن أحمد من جهة أخرى، وتمكن إبراهيم أن يستولى على مروود بنيابور وبخارى في سنة ٣٣٥هـ وخطب فيها إبراهيم بن أحمد، إلا أن الخلاف ما لبث أن وقع بين إبراهيم وبين أبي علي، فمآل إبراهيم إلى نوح، ووقعت حرب بين أبي علي ونوح بن نصر سنة ٣٣٧هـ، وانتهت بعقد الصلح بينهما^(١).



شكل (٢٨) نوح بن نصر

(١) ابن الأثير: ج ٨، ص ١٦٤-١٦٧.

واستطاع نوح بن نصر أن يسترد بلاد الرِّي والجبل من ركن الدولة بن بويه، الذي كان له أثر كبير في إثارة أبي علي سنة ٣٣٩ هـ^(١) وقد أسند نوح قيادة جيوش خراسان إلى أبي علي الذي تمكن بمساعدة شمكير ابن زيار أن يرغم ركن الدولة بن بويه على أن يدفع إلى نصر جزية سنوية مقدارها مائتا ألف دينار، إلا أن نوحاً عزل أبا علي مما جعله ينضم إلى ركن الدولة، ثم تدخل لدى الخليفة العباسي فأقره على ولاية خراسان بمساعدة معز الدولة البويهى سنة ٣٤٣ هـ، وهى السنة التى توفى فيها الأمير نوح بن نصر^(٢).

تولى الحُكم بعد نوح ابنه عبدالمك بن نوح سنة ٣٤٣ هـ، فوَلَّى قيادة جيوش خراسان بكر بن مالك، وأرسله من بخارى لإخراج أبي علي بن محتاج، فهرب ولجأ إلى ركن الدولة فى السرى حيث أكرمه^(٣).

غير أن حُكم عبدالمك لم يَطُل، إذ توفى إثر كبوة فرسه سنة ٣٥٠ هـ، فألت إمارة السامانيين إلى أخيه منصور بن نوح، وفى عهده حدثت فتناً فى خراسان، مما أدى إلى تسرب الضعف إلى الدولة السامانية^(٤).

وفى عهد المنصور تمرد أهل سجستان على أميرهم خلف بن أحمد، وعَيَّنوا مكانه طاهر بن الحسن، الذى لم يلبث أن طرده خلف بمساعدة منصور بن نوح، غير أن خلف بن أحمد تمرد على الأمير السامانى منصور ووقعت بينهما حرباً استمرت سبع سنوات، انتهت بعقد صلح بينهما وإعادة الخطبة لمنصور بن نوح، وفى ذلك يقول ابن الأثير^(٥): «وكان هذا أول وهن دخل الدولة السامانية، فطمع أصحاب الأطراف لسوء طاعة أصحابهم لهم».

وتطلع البويهيون إلى امتلاك بلاد السامانيين، فقامت الحرب سنة ٣٥٦ هـ بين منصور بن نوح وبين ركن الدولة بن بويه فى جهات السرى^(٦)، وظل العداء بين السامانيين والبويهيون قائماً حتى سنة ٣٦١ هـ، حيث تم الصلح بين الأمير

(١) مسكويه: تجارب الامم، ج ٢، ص ١٠٠ - ١٠٤.

(٢) تجارب الأمم: ج ٢، ص ١٥٤ - ١٥٧.

(٣) تجارب الأمم، ج ٢، ص ١٥٧.

(٤) تجارب الأمم: ج ٢، ص ١٨٩.

(٥) ابن الأثير: ج ٨، ص ٢٠٢.

(٦) ابن الأثير: ج ٨، ص ١٩٠ - ١٩١.

منصور وركن الدولة وابنه عضد الدولة، وتزوج نوح ابنة عضد الدولة، وحمل إليه الهدايا، وكتب وشهد عليه أعيان خراسان وفارس والعراق^(١). وبعد وفاة منصور بن نوح سنة ٥٣٦٦ تولى ابنه نوحاً الثاني الحكم، وكان عمره ثلاثة عشر سنة، فقام بأمر الدولة السامانية في بداية حكمه وزيره الحسن العيني، غير أن قائد جيش خراسان من قبل السامانيين استبد بالأمر، فنزل الوزير العتبي وولى أباالعباس «تاس» إمرة الجيش، وقامت الحرب بين السامانيين والبويهيين^(٢)، كما قامت ثورة علي يد أحد أمراء البيت الساماني ضد نوح الثاني، بعد أن حلت الهزيمة بجيوشه^(٣).



شكل (٢٩) الحرب بين السامانيين والبويهيين

(١) أبوالمحسن: النجوم الزاهرة: ج ٤، ص ٦٢؛ ابن الأثير: ج ٨، ص ٢٢٥.

(٢) ابن الأثير: ج ٩، ص ٤-٥.

(٣) ابن الأثير: ج ٩، ص ١٠-١١.

وفي عهد نوح بن منصور تعرضت الدولة السامانية للزوال، ففي سنة ٣٨٣ هـ ثار اثنان من قواد السامانيين هما أبو الحسن بن سيمجور وقائد الخاصة غلام نوح بن نصر، واتصلا بشهاب الدولة هارون بن سليمان إيلك المعروف ببغراخان التركي، فاستطاع (إيلك) هزيمة جيوش نوح بن منصور واحتل بخارى، إلا أن نوحاً تمكن من استردادها إثر موت بغراخان وثورة أهالي بخارى عليه^(١)، ونتيجة لتعرض السامانيين لثورة القواد، فقد استعان نوح بن منصور سنة ٣٨٤ هـ بسبكتكين صاحب غزنة للوقوف في وجه الثوار، فانتصر على جيوش الثوار قرب هراة، واستعاد نوح نيسابور وعيّن عليها وعلى جيوش خراسان محمود بن سبكتكين ولقّبهُ سيف الدولة، وعاد نوح إلى بخارى، وعاد سبكتكين إلى هراة، وأقام محمود بنيسابور^(٢)، غير أن الثوار لم يلبثوا أن انتصروا على محمود بن سبكتكين. دام حكم نوح بن منصور ما يزيد على إحدى وعشرين سنة (٣٦٦ - ٣٨٧ هـ) وكان حكمه مليئاً بالحروب الأهلية والثورات الداخلية، ولعل ذلك يعود لصغر سنه، وتدخل النساء في الحكم وتزايد نفوذ الوزراء، وطمع أمراء الأطراف واستنثارهم بالسلطة، وطمع الأسرة البويهية والأتراك في أملاك السامانيين، وقيام المنافسة بين أفراد البيت الساماني نفسه^(٣).

ولا شك في أن اعتماد السامانيين على الأتراك في جيوشهم - وهم من العناصر التي تأكد خطرهما على الدولة المعاصرة لهم - كان له أثره في إضعاف دولته والإسراع بزوالها، حيث أن هؤلاء الأتراك سرعان ما تقلدوا المناصب العالية في الجيش والإدارة المدنية، وأصبحوا خطراً عليهم سبب السلطات الواسعة التي استأثروا بها^(٤).

انهيار الدولة السامانية:

بعد وفاة نوح بن منصور الساماني سنة ٣٨٧ هـ تولى الحكم ابنه منصور، فأخذ يتألف قلوب من كان حوله بالأعطيات والهبات وخاصة منهم الأنصار والقواد، لكن (إيلك) التركي المعروف ببغراخان اتخذ من موت نوح بن منصور ذريعة لاحتلال

(١) ابن الأثير: ج ٩، ص ٤٨.

(٢) ابن الأثير: ج ٩، ص ٤٨.

(٣) حتى: تاريخ العرب: ص ٤٦٣؛ بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، ج ٢، ص ١١٨.

(٤) ابن الأثير: ج ٩، ص ٤٨.

سمرقند، لا سيما إنه كان قد استولى على بخارى سنة ٣٨٣هـ، وساعده في ذلك قائد الخاصة الذي استولى على بخارى، مدعياً أنه يعمل لخدمة الأمير الساماني منصور^(١).

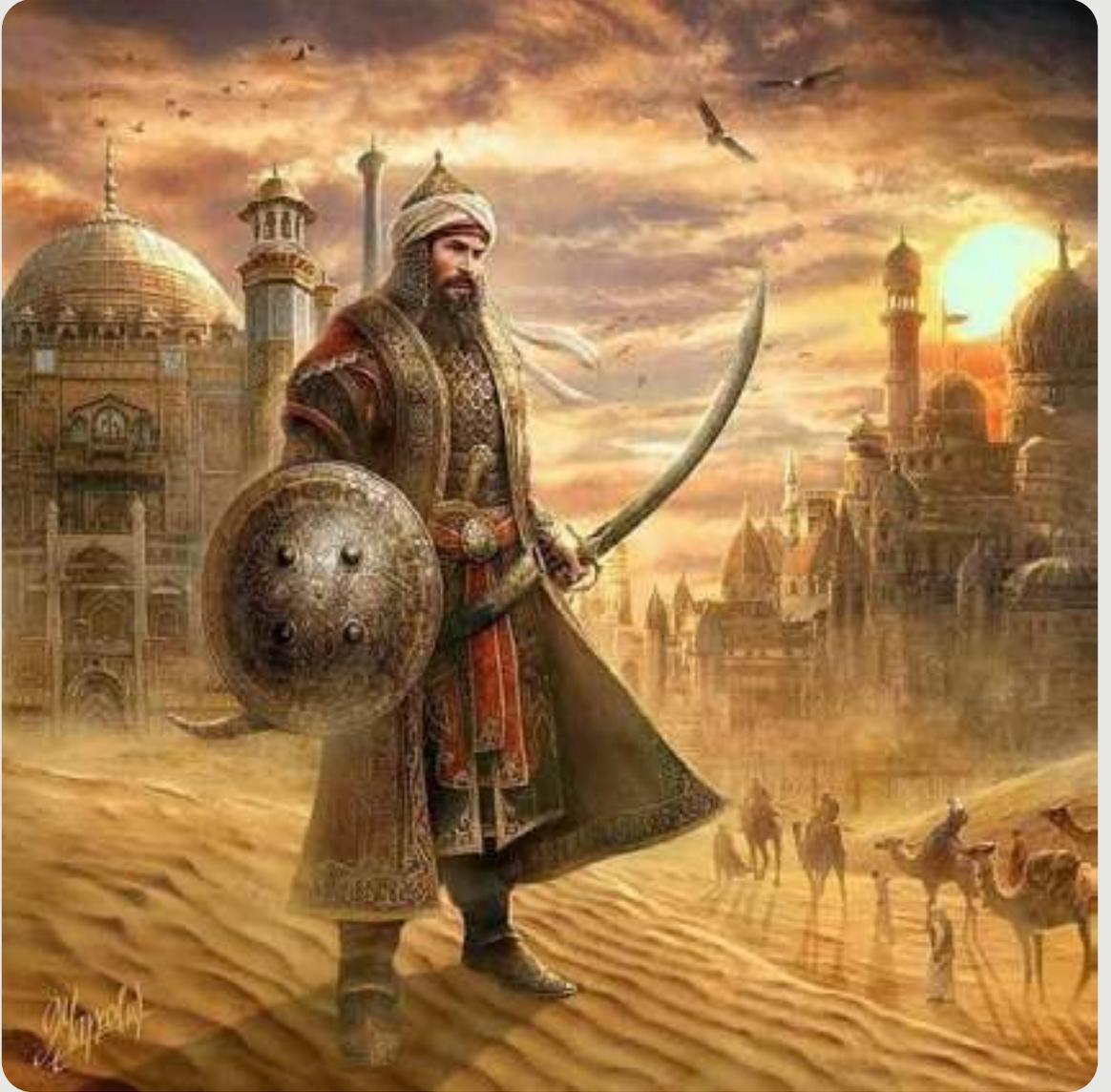
ثم بدأ النزاع بين الأمير منصور ومحمود الغزنوي الذي أثار حقه و غضبه تولية بكتوزون خراسان وطالب بإعادته إليه، ولمّا لم يستجب إليه، فقد عمل بكتوزون وقائد الخاصة على القبض على منصور بن نوح وسملا عينه، ثم وليا أخاه عبدالمك الحُكم.



شكل (٣٠) انهيار الدولة السامانية



اتخذ محمود الغزنوي من اضطراب الأمور فرصةً للاستيلاء على نيسابور وبخارى، واستقر ملكه بخراسان، وأزال نفوذ السامانيين عنها وخطب فيها للخليفة القادر بالله، ووقعت بلاد ما وراءالنهر في يد إيلك ببغراخان الذي قصد بخارى، وتودد إلى عبدالملك بن نوح، لكنه ما لبث أن قبض على عبدالملك وعلى قواده، وعلى منصور بن نوح، وحبس أقاربه سنة ٣٩٠ هـ، وبذلك انقضت الدولة السامانية.



شكل (٣١) محمود الغزنوي

ويمكن إرجاع عوامل زوال الدولة السامانية إلى ما يلي:

- ١- وقوع النزاع بين أفراد البيت الساماني.
 - ٢- خروج القواد وعمال الأقاليم على الأمراء السامانيين، وكثرة الثورات الداخلية التي كانت لمطامع الحرس التركي اليد الطولى فيها مثل أبي علي بن المحتاج وابن سيمجور.
 - ٣- اعتماد السامانيين على الأتراك في جيوشهم، وتعاضم نفوذ الحرس التركي الذين تقلدوا المناصب العالية في الجيش والإدارة المدنية، وصاروا يتلاعبون بالأمرء ويتدخلون بالسياسة، وأسقطوا هيبة الوزارة وهيبتهفا فاختلت الإدارة واضطربت الأمور المالية، حتى أصبحت الخزينة تشكو من الإفلاس. فعجلوا بخطرهم بزوال الدولة.
 - ٤- تدخل النساء والوزراء في الحُكْم بسبب صغر سن بعض الأمراء مثل نوح الثاني بن منصور بن نوح.
 - ٥- ظهور الدولة الغزنوية على حدودهم وقيام الحرب بينهم وبين السامانيين، وانتصار البويهيين على السامانيين قرب مرو، ثم الاستيلاء على أقاليمهم، مثل خراسان وبلاد ما وراء النهر.
 - ٦- استعانة بعض أمراء البيت الساماني وعمال الأقاليم بالبويهيين ضد الأمراء السامانيين مثل نوح بن نصر، ثم تحقيق انتصارات عليهم مما أضعف الدولة السامانية.
 - ٧- طمع البويهيين بأراضي الدولة السامانية، وكذلك طمع الأتراك بالدولة السامانية والعمل على السيطرة عليها.
- وهكذا زالت الدولة السامانية على أيدي الغزنويين وخانات تركستان، وأصبحت كأن لم تكن بالأمس، كدأب الدولة قبلها، إن في ذلك لعبرة لأولى الألباب»^(١).

(١) ابن الأثير: ج ٩، ص ٥٤-٥٦.

أثر الدولة السامانية في الحضارة العربية الإسلامية:

وَضَعَ إسماعيل الساماني أسس الإدارة للدولة السامانية، وسار بموجبه من جاء بعده، وكانت سبباً فيما وصلت إليه الدولة من نجاح، فكان النظام الإداري الساماني تقليدياً لما كان عند الخلفاء العباسيين، فالأمير الساماني كان له النفوذ، وإلى جانبه هيئة تنفيذية برناسته، وهناك أمراءً للمقاطعات التي بعد الدولة السامانية.

وكان رجال العلم في الدولة السامانية يتمتعون بمكانة عالية ونفوذ كبير، وكانت نصائحهم موضع تقدير الأمراء واهتمامهم، وكانت هناك خزانة: خزنة للنفقات في الظروف العادية، وأخرى للطوارئ بحيث لا يُنفق منها إلا عند الضرورة، وكان ما يؤخذ منها يُعدُّ ديناً يلزم إعادته، وبمرور الأيام نالت تلك النظم كثيراً من التغيير إذ اضمحلت سلطة الأمراء.

ثم تسربت السلطة إلى الأتراك، وصار الجيش يتدخل في السياسة، وفُرضت ضرائب جديدة بسبب فراغ الخزائن، مما أثار الشعب ضد الأمير، فاتخذ الشعب جانب الثورة، مما وضع نهايةً للدولة^(١).

وكانت خراسان وما وراء النهر قد ازدهرت في عهد السامانيين، وكانت خراسان تنقسم إلى أربعة أقسام: قسم عاصمته نيسابور، وقسم عاصمته مرو، وثالث عاصمته هراة، ورابع عاصمته بلخ. أما بلاد ما وراء النهر فكانت تنقسم إلى خمسة أقسام: الصفد وعاصمته بخارى وسمرقند، وإلى الغرب من الصفد خوارزم، والقسم الثالث صفانيان، والرابع فرغانة، والخامس الشاش^(٢).

بلغ نفوذ السامانيين أوجُه في نهاية القرن الثالث الهجري، فكانت بلاد ما وراء النهر والجبل وإيران خاضعة لنفوذهم، وكان في داخل دولتهم ولايات تكاد تكون مستقلة مثل بلاد سجستان، وهذه البلاد كانت تقيم الخطبة للأمير الساماني في بخارى، كما كانت تُرسل إليه مبالغ مالية سنوية نتيجة لاتساع الدولة، فقد اضطر السامانيون إلى إنشاء ما يشبه منصب «نائب ملك» فكانوا يقيمون في بخارى، ويقيم قائد جيشهم في نيسابور^(٣).

(١) انظر موسوعة التاريخ الإسلامي: ج ٨، ص ٧٧.

(٢) انظر: محمد جمال سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٨٥.

(٣) آدم منتز: الحضارة الإسلامية، ج ١، ص ٣٠-٣١.

وكان رجال العلم في الدولة السامانية يتمتعون بمكانة عالية ونفوذ كبير، وكانت نصائحهم موضع تقدير الأمراء واهتمامهم، وكانت هناك خزانة للخزائن: خزانة للنفقات في الظروف العادية، وأخرى للطوارئ بحيث لا يُنفق منها إلا عند الضرورة، وكان ما يؤخذ منها يُعدُّ ديناً يلزم إعادته، وبمرور الأيام نالت تلك النظم كثيراً من التغيير إذ اضمحلت سلطة الأمراء.

ثم تسربت السلطة إلى الأتراك، وصار الجيش يتدخل في السياسة، وفُرضت ضرائب جديدة بسبب فراغ الخزائن، مما أثار الشعب ضد الأمير، فاتخذ الشعب جانب الثورة، مما وضع نهاية للدولة^(١).

وكانت خراسان وما وراء النهر قد ازدهرت في عهد السامانيين، وكانت خراسان تنقسم إلى أربعة أقسام: قسم عاصمته نيسابور، وقسم عاصمته مرو، وثالث عاصمته هراة، ورابع عاصمته بلخ. أما بلاد ما وراء النهر فكانت تنقسم إلى خمسة أقسام: الصفد وعاصمته بخارى وسمرقند، وإلى الغرب من الصفد خوارزم، والقسم الثالث صفانيان، والرابع فرغانة، والخامس الشاش^(٢).

بلغ نفوذ السامانيين أوجهُ في نهاية القرن الثالث الهجري، فكانت بلاد ما وراء النهر والجبل وإيران خاضعة لنفوذهم، وكان في داخل دولتهم ولايات تكاد تكون مستقلة مثل بلاد سجستان، وهذه البلاد كانت تقيم الخطبة للأمير الساماني في بخارى، كما كانت تُرسل إليه مبالغ مالية سنوية نتيجة لاتساع الدولة، فقد اضطر السامانيون إلى إنشاء ما يشبه منصب «نائب ملك» فكانوا يقيمون في بخارى، ويقيم قائد جيشهم في نيسابور^(٣).

وكانت بخارى تحت حكم السامانيين موطن الجلال والفخر، ومركز الزُّهو والعظمة وأفق الأدب والأدباء، ومكاناً لالتقاء العلماء والقادة وذوى الرأي^(٤).

ويصف القزويني بخارى في هذا العهد بقوله: «إن بخارى كانت دائماً مَجْمَعُ الفقهاء ومعدن الفضلاء، ومنشأ علوم النظر وأكثر سكانها من نسل عمر بن عبدالعزيز، وقد توارثوا تربية العلم والعلماء كابراً عن كابر، ولم تُرَ مدينةٌ كان أهلها أشدَّ احتراماً لأهل العلم من بخارى.

(١) انظر موسوعة التاريخ الإسلامي: ج ٨، ص ٧٧.

(٢) انظر: محمد جمال سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٨٥.

(٣) آدم منتز: الحضارة الإسلامية، ج ١، ص ٣٠-٣١.

(٤) أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي، ج ٨، ص ٧٦.

ولعل ما ساعد على النهضة الفكرية وانتشار الحضارة في العصر الساماني، وانتشار الأمن والاستقرار في ربوع هذه الدولة، في الوقت الذي كان فيه الاضطراب منتشرًا في العراق وسوريا واليمن والحجاز، بسبب ما كان يقوم به القرامطة من أعمال نهب وتخريب، فقد أشبه نفسه بالمأمون، حتى إنه كان يُسمَّى مأمون الساماني، وهو الذي عاش في رحابه الثعالبي^(١).

وكان للأمرء السامانيين فضلٌ في تشجيع العلم والأدب، فقد شملت النهضة الفكرية في عهدهم جوانب علمية وجغرافية وتاريخية وأدبية.



شكل (٣٢) العلماء في عهد الدولة السامانية

وخير مثالٍ على النهضة العلمية في هذا العهد: أن نذكر أن العالم ابن سينا عاش في رحاب السامانيين، حيث عاش في عصر نوح الثاني، ويقول ابن سينا مقدراً جهود السامانيين وعنايتهم بالمكتبات: « لقد دخلت مكتبة السامانيين فوجدتها مقسمةً إلى حجراتٍ فسيحة في كل حجرةٍ مجموعةٌ هائلةٌ من الكتب من كل فنٍ

(١) أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي، ج ٨، ص ٧٦.

من فنون المعرفة، فهنا حُجْرَةٌ لكتب الشعر، وأخرى لكتب القانون، وثالثة لكتب الشريعة وهكذا، وقد قرأت بعض هذه الكتب واستفدت منها استفادةً عظيمةً، وبعض هذه الكتب نادراً لم يُعرف اسمه لدى كثير من الناس»^(١).
 وفي بلاط السامانيين ازدهر الرجال من عباقرة العلوم والفنون مثل: الشعراء الكبارين: الرودكي والدقيقي، اللذين تُنسَبُ لهما نشأة الشعر الحماسي، الذي أحيى روح الوطنية الإيرانية^(٢)، ومثل أبي علي ابن سينا.



شكل (٣٣) العالم ابن سينا

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ج ٢، ص ٤.

(٢) إيران: ماضيها وحاضرها، ص ٥٢-٥٣، للمؤلف دونالد ولبر.

وَوَجَدَتِ الْعُلُومَ التَّارِيخِيَّةَ وَالْأَدْبِيَّةَ اِهْتِمَامًا كَبِيرًا مِنَ السَّامَانِيِّينَ، وَفِيهَا يَلِي بَعْضَ الْأَعْلَامِ الَّذِينَ عَاشُوا فِي هَذَا الْعَهْدِ:

١- البلعمي: وهو أبو علي بن أحمد البلعمي: كان وزيراً لعبد الملك الأول وللمنصور الأول السامانيين: وقد ترجم هذا العالم كتاب الطبري في التاريخ إلى اللغة الفارسية^(١).

٢- عبدالله محمد بن أحمد الجهياتي: وقد عاش في عصر نصر الثاني وألف عدة كتب في فنونٍ مختلفةٍ من بينها كتابه المسالك والممالك.

٣- وهناك عدد من المؤرخين الذين كتبوا تاريخ بخارى - عاصمة الدولة السامانية - منهم: أبو بكر بن جعفر، الذي قدّم تاريخه بخارى إلى نوح بن نصر، وشمل لمحات عن أهمية بخارى، ومكانتها وجلالها وبهائها، وجميع العلماء الذين عاشوا فيها وفي المناطق المحيطة بها، وقد كتب بأسلوبٍ عربيٍ رائع.

ومنهم أيضاً أبو عبدالله الوراق الذي كتب تاريخاً آخر لبخارى، وهو يشمل تاريخ السامانيين أنفسهم، ومنهم كذلك الحاكم بن عبدالله النيسابوري، فقد كتب في تاريخ العلماء الذين عاشوا في نيسابور، وكان هؤلاء العلماء من الكثرة بحيث أن الكتاب الذي ألفه فيهم وصل إلى ثمانية أجزاء.

وللأمراء السامانيين فضلٌ كبيرٌ في تشجيع الأدب، وبخاصة الأدب الفارسي الذي بدأ ينتعش منذ القرن الثالث الهجري، حتى أن الفرس أخذوا يولفون بلغتهم الفارسية، وقد بدأت الروح الفارسية تظهر في الأدب الفارسي منذ ذلك الوقت، ومن ذلك كتاب الشاهنامه الفردوسي^(٢).

وقد عادت اللغة الفارسية للظهور في العهد الساماني، وصار يظهر منها نثرٌ وشعرٌ، وذلك إلى جانب ما كُتِبَ باللغة العربية في مجال الأدب من شعرٍ ونثرٍ، ومن أشهر كتب الأدب في العصر الساماني يتيمة الدهر للثعالبي.

وكان الأمير منصور الثاني يقف مع أشهر الأدباء في عصره، وقد كان متحمساً وحاول أن يُضفي على الدولة روح الشباب التي كان يتمتع إليها، إلا أن الهرم سيطر على الدولة فاتجه إلى الأدب والشعر يضع فيهما قدراته^(٣).

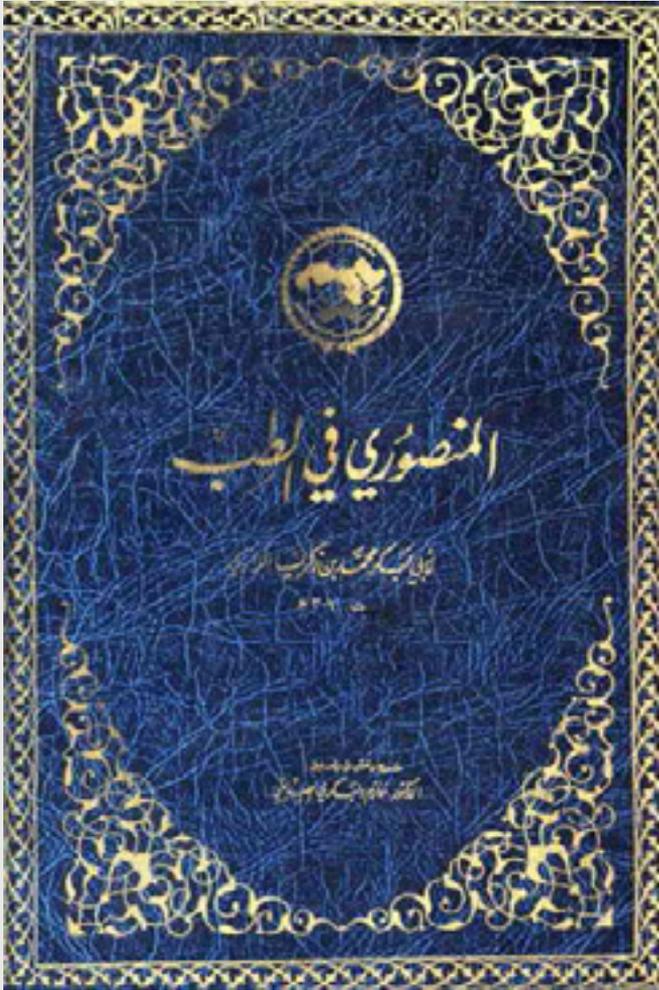
(١) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام، ج ٣، ص ٨٢؛ موسوعة التاريخ الإسلامي، ج ٨، ص ٧٨.

(٢) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام، ج ٣، ص ٨٢.

(٣) أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي، ج ٨، ص ٧٩.

وفي مجال الطب والفلك والفلسفة كان الفُرس يؤلفون فيها باللغة العربية بدلاً من الفارسية، حيث لم يكن لهذه العلوم علاقةً كبيرةً بالأدب الفارسي. وكان من أشهر كتب الطب في ذلك العصر: الكتاب المنصوري الذي ألفه أبوبكر الرازي، وأهداه إلى أبي صالح منصور بن إسحق الساماني الذي حكّم سجستان نيابةً عن السامانيين.

ويذكر أن ابن سينا - الذي كان على علاقةٍ قويةٍ بالسامانيين - روي إنه رأى في مكتبة مدينة بخارى - حاضرة الدولة السامانية - من طرائف الكتب ما لم يسمع بمثله من قبل^(١).



شكل (٣٤) كتاب المنصور في الطب لأبو بكر الرازي

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء.

وفى مجال الطب والفلك والفلسفة كان الفُرس يؤلفون فيها باللغة العربية بدلاً من الفارسية، حيث لم يكن لهذه العلوم علاقةً كبيرةً بالأدب الفارسي. وكان من أشهر كتب الطب في ذلك العصر: الكتاب المنصوري الذي ألفه أبو بكر الرازي، وأهداه إلى أبي صالح منصور بن إسحق الساماني الذي حكّم سجستان نيابةً عن السامانيين.

ويُذكر أن ابن سينا - الذي كان على علاقةٍ قويةٍ بالسامانيين - روي أنه رأى في مكتبة مدينة بخارى - حاضرة الدولة السامانية - من طرائف الكتب ما لم يسمع بمثله من قبل^(١).

ومن مظاهر تأثير السامانيين في الحضارة، النهضة الصناعية التي قامت في عهد السامانيين، فكان يقود هذه النهضة رجالٌ من الصين ومن مصر، وكانت الصناعة تشمل مصانعٍ للقطن، وأخرى للحديد، وثالثة للمعادن وبخاصة الأسلحة، ومما ساعد على النهضة الصناعية تشجيع الأمراء السامانيين، وتوفير مناخ الفهم التي اشتهرت بها فرغانة.

واشتهرت سمرقند في العهد الساماني بصناعة الورق، الذي يُعتبر أساساً للحضارة، وترتب على تلك النهضة الصناعية إعطاء الطرق اهتماماً زائداً، وذلك لنقل البضائع من مكانٍ إلى آخر، وأهم هذه الطرق التي اهتمت بها الدولة الطريق الواصل بين جورجيا شمالاً إلى خراسان جنوباً، والطريق الموصل من البحر الأسود إلى أوروبا^(٢).

وفى نهاية عهد السامانيين تحولت الدولة إلى ولاياتٍ وإقطاعاتٍ، وصادف هذا التحول ظهور البويهيين والغزنويين في تلك البقاع، مما حثّ على السامانيين الخروج من الساحة، وإخلاء الطريق للقوة الجديدة. هذا إيجازٌ عن الدولة السامانية، التي مثّلت أخطر دولة في إيران، ولعبت دوراً هاماً في تاريخ هذه البلاد، ووضعت الأساس لإعادة اللغة الفارسية إلى الحياة، كما شجعت التشيع حتى صار المذهب الرسمي لإيران.

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء.

(٢) انظر موسوعة التاريخ الإسلامي: ج ٨، ص ٧٩.

ملوك السامانيين:

- | | |
|------------------------------------|-------------|
| ١- نصر الأول بن أحمد | ٢٦١هـ/٨٧٤م |
| ٢- إسماعيل بن أحمد | ٢٧٩هـ/٨٩٢م |
| ٣- أحمد بن إسماعيل | ٢٩٥هـ/٩٠٧م |
| ٤- نصر الثاني بن أحمد بن إسماعيل | ٣٠١هـ/٩١٣م |
| ٥- نوح الأول بن نصر الثاني | ٣٤٣هـ/٩٥٤م |
| ٦- عبد الملك الأول بن نوح | ٣٤٣هـ/٩٥٤م |
| ٧- منصور الأول بن نوح | ٣٥٠هـ/٩٦١م |
| ٨- نوح الثاني بن منصور | ٣٦٦هـ/٩٧٧م |
| ٩- منصور الثاني بن نوح الثاني | ٣٨٧هـ/٩٩٧م |
| ١٠- عبد الملك الثاني بن نوح الثاني | ٣٩٠هـ/١٠٠٠م |



تدريبات الفصل الثالث



حدد صواب أو خطأ العبارة التالية:

(١) ينتمي الطاهريون إلى أصل فارسي:

○ صواب

○ خطأ

(٢) يعقوب بن الليث هو من قام بتأسيس الأسرة الصفارية:

○ صواب

○ خطأ

اختر الإجابة الصحيحة مما يلي:

(٣) تولى بلاد خرسان وما وراء النهر سنة ٣٣١ هـ :

○ عبد الملك بن نوح

○ نوح بن نصر

○ منصور بن نوح

(٤) وضع أسس الإدارة للدولة السامانية:

○ إسماعيل الساماني

○ منصور الثاني

○ نوح بن منصور





الفصل الرابع
الدولة الغزنوية والدولة السلجوقية



الفصل الرابع

الدولة الغزنوية والدولة السلجوقية

الأهداف:

عزيزي الطالب .. بعد الإنتهاء من دراسة هذا الفصل ينبغي عليك أن تكون قادراً على أن:

- (١) توضح أسباب قيام الدولة الغزنوية.
- (٢) تتعرف على أسباب صحوة الخلافة العباسية.
- (٣) تتعرف على عصر نفوذ البويهيين.
- (٤) تتعرف على جهود السلاطين العظام للنهوض بالدولة السلجوقية.
- (٥) تشرح أسباب إهيار الدولة السلجوقية.

الدولة الغزنوية:

(٣٥١-٥٨٢هـ / ٩٦٢-١١٣٦م)

اتساعها:

يرجع قيام الأسرة الغزنوية إلى نشاط بعض القادة الأتراك في بلاط الأمراء السامانيين، إذ كان لهم سلطان واسع في الجيش الساماني، وهم الذين دبّروا مقتل أحمد بن إسماعيل، وسيطروا على نوح الثاني^(١).

وتعود علاقة الأتراك بإيران إلى عهد الدولة الإخمينية، إذ كانت توكل إلى الأتراك الذين يهاجرون إلى إيران من أجل العمل بالحراسة، والاشتراك في الجيوش لكفاءتهم الحميمة، وكان الخليفة العباسي قد اعتمد عليهم في هذا المجال بعد توليه الخلافة.

ولم يفتح الأتراك منذ بداية الدولة الغزنوية بما قنعوا به في الخلافة العباسية من نفوذ، بل اتجهوا لتكوين الدول والممالك في العالم الإسلامي^(٢).

(١) عبدالكريم غرايبة: العرب والترك، ص ٢٧.

(٢) أحمد شلبي: تاريخ الحضارة الإسلامية: ج ٨، ص ٨٦.



شكل (٣٥) الدولة الغزنوية

وكان (ألبتكين) من الموالي الأتراك الذين كانت لهم منزلة كبيرة عند السامانيين، فكان يقود جيش نوح الأول الساماني (٣٣١-٣٤٣هـ)، ثم عيّنه عبد الملك بن نوح (٣٤٣-٣٥٠هـ) حاجباً في بلاطه، ثم عيّنه في عام ٣٤٤هـ عاملاً على هراة في خراسان، وأوصاه أن يكون الحكم من بعده لابنه، غير أن ألبتكين عجز - بعد وفاة عبد الملك وتولى منصور بن نوح الأمر - عن تنفيذ وصية أخيه، ثم إنه أقصى من منصبه، ف لجأ إلى مدينة غزنة التي كان أبوه عاملاً عليها من قبل السامانيين، وتبعه بعض رفاقه والساخطون على المنصور، وبعد وفاة أبيه سنة ٣٥٢هـ تولى مكانه، وعجز المنصور في القضاء على ألبتكين، فعظّم شأنه^(١).

وبعد وفاة ألبتكين آلت السلطة إلى ابنه إسحق الذي حكّم سنة واحدة دون أن يتمكن من توسيع حدود بلاده، وخلفه بعض الأتراك الذين ليس لهم ذكر في التاريخ مثل: (بلكانين- مملوك الحق)، و(بيرى) أحد أهالي المدينة، والذين سرعان ما أخلصوا إلى سبكتكين - أحد موالي ألبتكين وزوج ابنته - الذي يُعتبر المؤسس الحقيقي للأسرة الغزنوية.



شكل (٣٦) تمثال رمزي لألب تكين

ويذكر ابن الأثير^(١): أن إسحق ألبتكين لما توفي «ولم يخلف من أهله وأقاربه من يصلح للحكم، اجتمع عسكره ونظروا فيمن يلي أمرهم، ويجمع كلمتهم، فاختلفوا ثم اتفقوا على سبكتكين لما عرفوه من عقله ودينه ومروءته وكمال الخير فيه، فقدموه عليهم وولوه أمورهم وحلفوا له وأطاعوه، فأحسن السيرة فيهم وساس أمورهم سياسة حسنة».



شكل (٣٧) سبكتكين

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج ٨، ص ٢٤٧.

ويقال أن سبكتكين ينحدر من نسل يزدجرد الثالث آخر أباطرة فارس^(١). وسَعَّ سبكتكين مُلكه من ناحية الهند، فأنشأ بها حكومةً حاضرتها بشاور، كما امتد نفوذه إلى فارس باستيلائه على خراسان وما إليها. وتَقَرَّبَ إليه نوحُ الثاني ابن منصور، وعيَّنه والياً على خراسان، فاتسع مُلكه وثبَّت أركانها، ولم يكن يربطه بالسامانيين إلا رباطاً أسمى لم يقلل من مكانته، فكان سلطانه أوسع من سلطان نوح^(٢)، وأصبح له نفوذ في بلاط السامانيين، إلى درجة أنه صار إليه تعيين الوزراء في بلاط السامانيين^(٣). وقد استطاع سبكتكين بفضل انتصاراته التي أحرزها في فتوحه أن يضع أساس الدولة الغزنوية.

ويذكر ابن الأثير أن سبكتكين استولى على الناحية القريبة من غزنة وبست الواقعة بين سجستان وهرارة، وأن صاحبها استعان به على الثوار الذين استولوا على بلاده، غير أنه ماطله ولم يَفِّ بتعهداته له، فهزمه سبكتكين واستولى عليها، وأرغم واليها على الاعتراف به^(٤)، وقد أتاحت هذه الانتصارات الفرصة لسبكتكين للاستيلاء على جزءٍ كبيرٍ من بلاد الهند.

لكن سبكتكين قبل وفاته أوصى بالحكم لابنه إسماعيل، وتجاوز ابنه الأكبر محمود الذي كان في نيسابور آنذاك، فثار محمودٌ لذلك، وحارب أخاه إسماعيل وانتصر عليه، ثم أسرع فوضع نهايةً للدولة السامانية التي كانت في أيامها الأخيرة، وبذلك بدأت أزهى عصور الغزنويين^(٥).

(١) موسوعة التاريخ الإسلامي، ج ٨، ص ٨٦.

(٢) العتبي: تاريخ اليمنى، ج ١، ص ١٨١.

(٣) العتبي: تاريخ اليمنى، ج ١، ص ٢٤١.

(٤) ابن الأثير: الكامل، حوادث سني ٢٦٦-٣٦٩ هـ.

(٥) انظر: نظام الملك سياسة نامه، ص ١٢٥.

محمود الغزنوي: (يمين الدولة ٣٨٨ - ٤٢١هـ):

تولى الحُكم بعد انتصاره على أخيه إسماعيل، وألقى القبض عليه، ويُعتبر محمود بن سبكتكين من أشهر رجال الدولة الغزنوية، وقد استطاع بعد فترةٍ من وفاة أبيه سنة ٣٨٧هـ / ٩٩٧م أن يبسط سلطانه على مُلك السامانيين في خراسان وبلاد ما وراء النهر، كما فتح بلاد الفور فيما بين غزنة وهرارة، ونشر الإسلام بين أهلها^(١).



شكل (٣٨) محمود الغزنوي

(١) جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٨٩.

كذلك عمّل محمود الغزنوي على القضاء على نفوذ البويهيين في السرى وبلاد الجبل، كما حارب الأتراك الغزية أصحاب أرسلان بن سلجوق التركي، وكانوا يقطنون بخارى سنة ٤٢٠هـ^(١).

ولم تقتصر أعماله على فتح البلاد في فارس، بل توجّه شطر بلاد الهند التي رأى فيها ميدان الجهاد الأكبر، فغزاها سبع عشر مرة في مدى سبعة وعشرين عاماً فيما بين سنتي ٣٩١-٤١٧هـ / ١٠٠-١٠٢٦م، وقد اصطبغت حملاته إلى هذه البلاد بصبغة الجهاد الديني، وكان يهدف من غزو بلاد الهند نشر الإسلام فيها، فغزا مدينة الملقان سنة ٣٩٦هـ^(٢)، وفتحها عنوةً وفرض على أهلها الجزية^(٣).

إزاء هذه الأخطار التي كانت تهدد ملوك الهند وأمرائها بسبب هجمات محمود الغزنوي على أراضيهم، اتفقوا على الوقوف في وجهه، وتوجهت قواتهم لملاقاته بأرض البنجاب^(٤)، إلا أن محمود الغزنوي أوقع بهم الهزيمة، واستولى على قلاعهم، وغنم من الذخائر والجواهر والأواني الذهبية والفضية الشيء الكثير، وعاد إلى غزنة بهذه الغنائم حيث عرضها في صحن داره^(٥).

كانت هذه الانتصارات دافعاً لمحمود الغزنوي لمواصلة هجماته على بلاد الهند، فأتجه إلى الولايات الشمالية، وعندما وصلت جيوشه إلى باردان سنة ٤١٠هـ / ١٠٢٠م خاف (هاردتا) - أحد ملوك الهند - على حياته من عقوبة الله، ولذلك اعتقد أن خير سبيل لنجاته هو الدخول في الدين الإسلامي وترك عبادة الأصنام^(٦).

(١) ابن الأثير: ج٩، ص ١٣٠.

(٢) الملقان: مركز مشهور للحجاج الهنود في جنوب البنجاب. معجم البلدان: ج٨، ص ٢٠١.

(٣) ابن الأثير: ج٩، ص ٦٤؛ حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام، ج٣، ص ٩٠.

(٤) سرور: تاريخ الحضارة، ص ٩٠.

(٥) انظر: ابن الأثير، ج٩، ص ٧١.

(٦) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ص ٢٨٨.



شكل (٣٩) السلطان محمود مرتدياً رداءً منحه له الخليفة العباسي القادر بالله من بغداد



شكل (٤٠) حملة السلطان محمود إلى كارجيستان

وَوَالَى محمود الغزنوي فتوحاته في بلاد الهند حتى وصل إلى سومنات سنة ٤١٦ هـ / ١٠٢٦ م، وهناك وجد أمراء الهند قد حشدوا جموعهم للدفاع عن المعبد الأكبر فيها، فاشتبكا في قتال انتهى بانتصار محمود الغزنوي، واستولى على المعبد الذي كان له مكانة مقدسة عند اليهود، وحطم أصنام هذه المعابد، ولذلك سُمِّيَ محطم الأصنام، وأخذ إلى غزنة بعض أجزاء صنم سومنات، وجعل منها درجات للسلم الذي كان يصعد عليه الناس إلى مسجده العظيم بغزنة^(١)، ثم زحف إلى كشمير، فأخضعها ودخل أكثر سكانها الإسلام، ثم زحف محمود الغزنوي إلى ما وراء النهر، فخضعت له سمرقند وبخارى ومد سلطانة إلى أسفيهان، وكانت بيد البويهيين، ثم احتل أجزاء من إيران.

فَرِحَ محمود الغزنوي بهذه الانتصارات كثيراً، وأرسل إلى الخليفة القادر بالله العباسي يُطلعُه على فتوحاته في الهند، ويصف له الغنائم، وما وجدوه في صنم سومنات^(٢)، واتخذ محمود الغزنوي لاهور مقراً لحكومته بالهند، وعيَّن بها نائباً عنه، واتسعت دولته حتى أصبحت تضم شمال الهند شرقاً، والعراق العجمي غرباً، وخراسان وطنجارستان وعاصمتها بلخ، وجزءاً من بلاد ما وراء النهر في الشمال، وسجستان في الجنوب^(٣).

وحصل محمودٌ بذلك من الخليفة العباسي بالاعتراف به وبسلطانه على الأرمن التي يسيطر عليها، وفي عهده كانت قوة السلاجقة قد أخذت في الظهور، ولكن قوة محمود كانت في قمة مجدها، فأحنى له السلاجقة الرؤوس ودخلوا في طاعته. وبلغ الغزنوي في فتوحاته «إلى حيث لم تبلغه في الإسلام راية، ولم تقل به قط سورة ولا آية فدحض عنها أجناس الشرك وبنى بها مساجد وجوامع^(٤)، وأقام فصارت الأطفال تهدد في بطالاتها بأقدامه، وتفرغ بإقبال ألويته وأعلامه^(٥).

(١) أنظر: جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٩٠؛ موسوعة التاريخ الإسلامي: ج ٨، ص ٨٩.

(٢) وفيات الأعيان: ج ٢، ص ٨٤-٨٥.

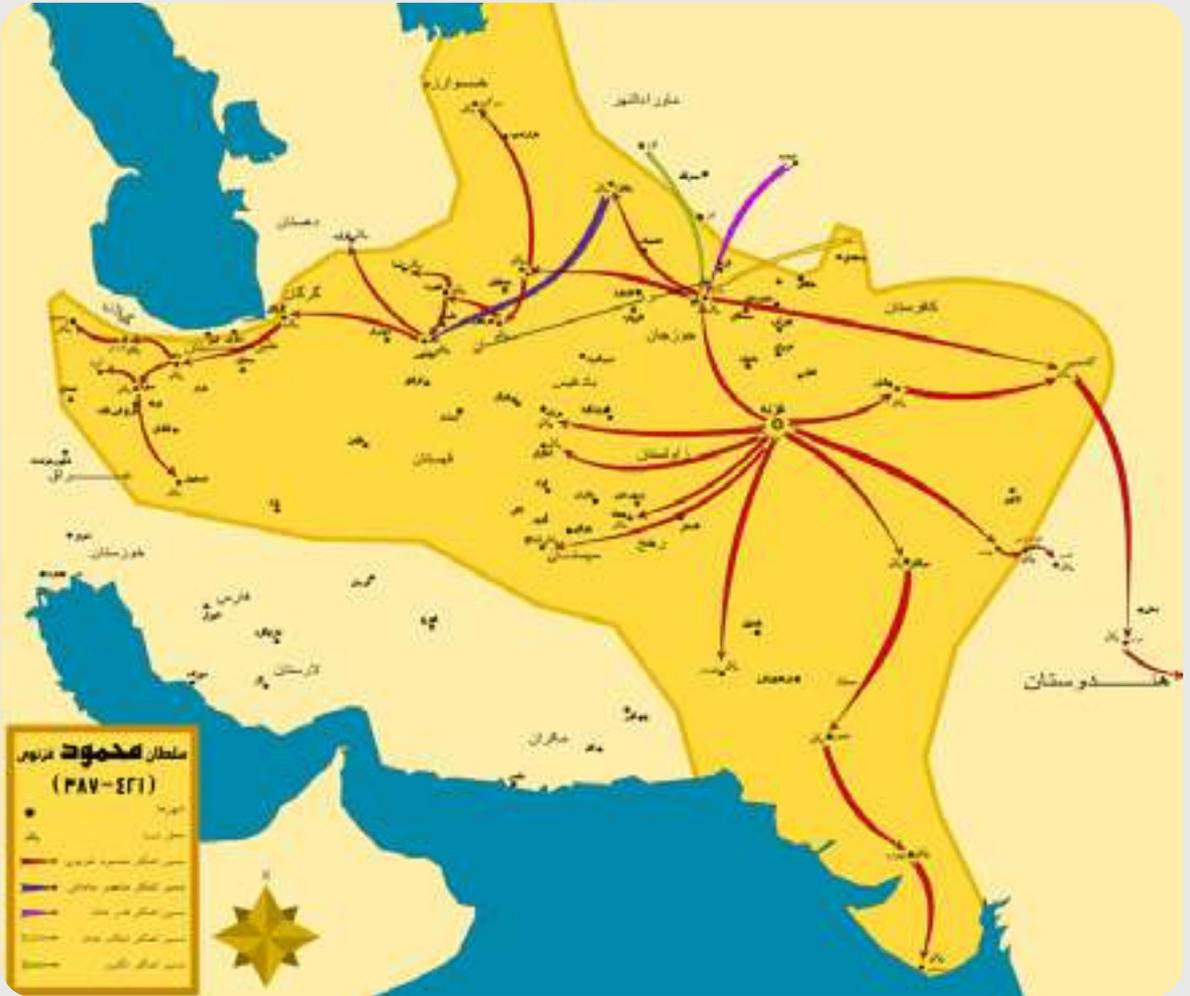
(٣) جمال الدين سرور: تاريخ الحضارة الإسلامية، ص ٩٢ حتى تاريخ العرب ص ٦٥.

(٤) وفيات الأعيان: ج ٢، ص ٨٥.

(٥) العتبي: تاريخ اليمنى، ج ١، ص ٣٨، ٣٩.

وقد أظنبت العتبي^(١) في خصال محمود الغزنوي وسجاياه، وأشاد باتساع رقعة ملكه كثيراً.

وقد نقل العتبي عن بديع الزمان الهمذاني (٣٩٨هـ / ١٠٠٧م) أبياتاً يصف فيها ما بلغت الدولة الغزنوية في عهد محمود الغزنوي، وتحول السيادة والنفوذ من العنصر الفارسي إلى العنصر التركي بقضاء محمود الغزنوي على الدولة السامانية^(٢).



شكل (٤١) مسار حروب السلطان محمود الغزنوي

(١) انظر العتبي: اليمنى، ج ١، ص ٣٣، ٣٤.

(٢) انظر العتبي: اليمنى، ج ١، ص ٣٨٤-٣٨٦.

مسعود الأول: (٤٢١-٤٣٢هـ):

أوصى محمود الغزنوي بالحكم من بعده لابنه محمد نائبه ببلخ، وألقبه جلال الدولة، ولم يوصى لابنه الأكبر مسعود بسبب إيقاع الوشاه به عند أبيه، فلما مات محمود وصل محمد إلى غزنة بعد موته بأربعين يوماً وأغدق على قواده وعساكره فأطاعوه، أما مسعود فلما بلغه خبر وفاة أبيه - وكان بأصفهان - توجه إلى خراسان، وكتب إلى أخيه أن يقرره على بلاد التي فتحها بعض بلاد طبرستان والجبل وأصفهان، ولكن محمود رفض هذا الطلب، وانضم جنده إلى مسعود لكبر سنه وكفاءته، بل ثار بعضهم وقبضوا عليه وحبسوه وسملوا عينيه لإنشغاله بالهلو والترف وإهمال شئون الدولة، ونادوا بأخيه مسعود سلطاناً وذلك في ذي القعدة سنة ٤٢١ هـ، أي بعد خمسة أشهر من تسلمه مقاليد الحكم (١)، ولقبه الخليفة العباسي القادر ناصر دين الله وظهير خليفة الله (٢) وسيد الملوك والسلطين (٣).

عمل مسعود على فرض نفوذه في بلاد المشرق، فاحتل مكران سنة ٤٢٢ هـ، ثم كرمان، التي ما لبثت أن خرجت عن طاعته، ثم سار إلى خراسان لفتح العراق، فانتهاز أحمد بن ينال تكين - نائب الغزنويين في لاهور - الفرصة للاستقلال بهذه البلاد، مما اضطر مسعود إلى العودة إلى غزنة، وولى علاء الدولة بن كاكوية - وكان البويهيون قد دكوا أصفهان - فطلب من مسعود إقراره عليها مقابل دفع الجزية سنة، وأقر دارا لانور في السرى ابن قابوس بن كشمير على جرجان وطبرستان، وأرسل أيا سهل الحمدونة لإقرار الأمور في السرى، وتوجه مسعود إلى الهند وفتح قلعة (سرسى) الجبلية في جنوب كشمير، والتي لم يستطع أبوه محمود من قبل أن يفتحها، وأرغم نائبه أحمد بن ينال على الارتداد إلى نهر السند حيث غزنة، ثم عاد في السنة التالية إلى هذه البلاد واحتل قلاعها، وخلف ابنه مجدداً على بلاد البنجاب (٤).

وبعد أن تجاوز مسعود المشاكل التي واجهته في بلاد الهند، تعرّض لمصاعب خطيرة، تمثلت بالخطر السلجوقي، ومنازعة الغزله على السلطة.

(١) ابن الأثير: ج ٩، ص ١٥١.

(٢) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام، ج ٣، ص ٩٧.

(٣) ابن الأثير: ج ٩، ص ١٨١.

(٤) ابن الأثير: ج ١، ص ١٧٠ - ١٧٢ - ١٨١.

أما الغز فقد طردهم من خراسان بعد حروب استمرت حوالي عامين (٤٢٩-٤٣١ هـ)، أما السلاجقة فقد تزايد خطرهم، فَنهَبُوا هِراةَ في سنة (٤٢٢ هـ / ١٠٣١ م)، وبدأوا منذ سنة ٤٢٥ هـ يُغيرون وبشكل منظم على خراسان، لكن الأمير مسعود هزمهم في سنة ٤٢٦ هـ، وبسبب انشغال مسعود بغزو الهند، فلم يستطع التفرغ للقضاء عليهم فتزايدت قوتهم، وطمعوا في أملاك الغزنويين، وكرسوا جهودهم للاستيلاء على نيسابور ومرو منذ سنة ٤٢٩ هـ وعلى معظم بلاد خراسان باستثناء بلخ، وإزاء ذلك اضطر مسعود إلى العودة من غزنة، فحاربهم وهزم طغرل سنة ٤٣٠ هـ وطرد السلاجقة والغز من خراسان، على أن السلاجقة لم يلبثوا أن هزموا مسعوداً سنة ٤٣٠ هـ، وقد كان لانتصار السلاجقة على مسعود أثر كبير في نفسه، فانسحب إلى بلاد

الهند أملاً في جيش كبير يحارب به السلاجقة^(١)، لكن الأمور انقلبت رأساً على عقب، إذ أن موالى مسعود ثاروا عليه بعد عبوره نهر السند، ونهبوا خزائنه، وقبضوا عليه، وعيّنوا مكانه أخاه (محمد) الذي كان بصحبته مسمولاً بعد أن قبض عليه.

وبقي مسعود ومن معه من العسكر، وانتهت الحروب الداخلية التي قامت بين جند مسعود وبين أنصار محمد بقتل مسعود، وقد وصف ابن الأثير الأمير مسعود بقوله^(٢): أنه كان شجاعاً كريماً، ذا فضائل كثيرة، مُحباً للعلماء، فصنعوا له التصانيف الكثيرة في العلوم، وكان كثير من الصدقة والإحسان إلى أهل الحاجة، قيل إنه تصدق مرة في شهر رمضان بألف ألف درهم، وإنه عمّر كثيراً من المساجد، وأجزل العطاء للشعراء، وكان يكتب خطأ حسناً، وقد امتد نفوذه على أصبهان والسرى وهمذان وطبرستان وجرجان وخوارزم وكرمان والهند وغزنة وبلاد الغور والهند.

وبعد مقتل مسعود رجع أخوه محمد إلى غزنة، وبعث إلى ابن أخيه مودود بن مسعود بخراسان يبين له أن لا دخل له بقتل أبيه، فأجابه بكلام يدل على الحزن الشديد لمقتل أبيه، فقال: «أطال الله بقاء الأمير القاسم (محمد بن محمود بن سبكتكين).

(١) ابن الأثير: ج ٩، ص ١٨٧.

(٢) ابن الأثير: ج ٩، ص ١٨٢.

ورزق ولده المعتوه أحمد عقلا يعيش به، فقد ركب أمراً عظيماً، وأقدم على أراقة دم ملك، مثل والدي الذي لقبه أمير المؤمنين سيد الملوك والسلطين، وستعلمون في أي حتف تورطتم، وأي شر تأبطتم، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون^(١). ثم توجه مودود بن مسعود من خراسان إلى غزنة، وحارب عمه محمداً بالقرب من دينور على طريق كابل وشاور وانتصر عليه، ودخل غزنة وقتل جميع أولاد عمه محمد، عدا واحداً لأنه غضب لمقتل عمه، كما قتل مودود وكل من ظن أنه اشترك بالمؤامرة، وكان ذلك سنة ٤٣٢ هـ، وخاف الغز السلاجقة من انتصارات مودود، فثار عليهم أهالي البلاد التي خضعت لهم ودخلوا في طاعة مودود، فأصبح قوياً لا يعتقد بأن أحداً ينافسه، إلا أخاه مجدودا، الذي كان والياً على أقاليم البنجاب، ومنذ سنة ٥٢٦ هـ تمرد مجدود على حكم أخيه، وأعلن استقلاله في لاهور والمولتان، ثم سار على رأس جيش كبير متجهاً إلى غزنة، غير أن الموت عاجله في الطريق، فمات بعد أن وصل إلى لاهور بثلاثة أيام في ذي الحجة سنة ٤٣٢ هـ / آب ١٠٤١ م^(٢).

وعلى مر السنين أصبح السلاجقة يُشكِّلون خطراً يهدد الدولة الغزنوية، فاستطاع الأمير ألب أرسلان بن داود السلجوقي أن يهزم جيش مودود الغزنوي سنة ٤٣٥ هـ، رغم أن بعضاً من قطاعات جيش مودود تمكنت من القضاء على جماعة من الغز بنواحي (بست)^(٣). وقد حاول ثلاثة من ملوك الهند محاصرة لاهور حاضرة الغزنويين في هذه البلاد، ولكن مودود هزمهم.

ونتيجة لهذه الانتصارات فقد استعاد الغزنويين هيبتهم في بلاد الهند الشمالية إلى حين، وعمل مودود على استرداد البلاد التي استولى عليها السلاجقة في عهد أبيه، وحصل على مساعدة ملك الترك وصاحب أصبهان، ولكن الموت عاجل مودوداً، إذ إنه مرض أثناء مسيره سنة ٤٤١ هـ لحرب السلاجقة، فعاد إلى غزنة ومات فيها في ٢٠ رجب سنة ٤٤١ هـ عن عمر يناهز التاسعة والعشرين عاماً، بعد أن حكم تسع سنوات وعشرة أشهر^(٤)، فحال موته دون القضاء على السلاجقة،

(١) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام، ج ٣، ص ٩٩.

(٢) ابن الأثير: ج ٩، ص ١٨٧.

(٣) ابن الأثير: ج ٩، ص ١٩٢، ١٩٣.

(٤) ابن الأثير: ج ١٠، ص ٢٠٨.

وبعد وفاة مودود تولى ابنه مسعود الحُكم، ولكنه لم يبق فيه سوى خمسة أيام فقط، ثم تقلد السُلطة عمه أبو الحسن علي بن مسعود الأول، وقد انتهز عبدالرشيد بن محمود الغزنوي هذا الاضطراب الذي ساد الدولة الغزنوية بعد موت مودود، فدعا الجند إلى طاعته، فأجابوه وتوجهوا إلى غزنة، فهرب علي بن مسعود واستقر الأمر له، وتلقب عزالدولة، وسيف الدولة، وشمس دين الله وقيل أيضاً جمال الدولة^(١).

وقد حاول عبدالرشيد طرد السلاجقة من خراسان، بمساعدة طغرل زوج أخت مودود وحاجبه الذي بعثه إلى هذه البلاد، ولما أدرك طغرل قوته توجه إلى غزنة وحاول خداع عبدالرشيد، فاعتصم هذا الأمير بقلعته في غزنة، ولكن طغرل استطاع القبض عليه وقتله سنة ٤٤٤ هـ، واحتل بلاده وتزوج ابنة مسعود الأول، لكن تصرفات طغرل أغاظت القوات، مما جعلهم يتحالفون مع نائب الغزنويين في الهند ومع زوجة طغرل.

فدخل القواد على طغرل وقتلوه وعيّنوا فروخ شاه مكانه، وقد حارب السلاجقة عدة سنوات، وفي سنة ٤٥٠ هـ ثار عليه قواده ومماليكه، واتفقوا على قتله وهو في الحمام، ولكنه نجا بمساعدة بعض أنصاره.

ويبدو أن هذه الحادثة أثرت في نفسه، فلم يعيش طويلاً، حيث مات في شهر صفر سنة ٤٥١ هـ، وتولى السُلطة بعده أخوه إبراهيم بن مسعود (٤٥١-٤٩٢ هـ) فعقد هذا الصلح مع السلاجقة وفتح كثيراً من القلاع في الهند^(٢).

(١) حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام، ج ٣، ص ١٠١.

(٢) ابن الأثير: ج ١٠، ص ٢.

نُظْمُ الغزنويين وحضارتهم:

وصلت الدولة الغزنوية إلى أوج قوتها في عهد يمين الدولة محمود الغزنوي بحكم مملكة واسعة جداً، وحصل على مال كثير من غزواته وبخاصة في بلاد الهند التي كانت معابدها حافلة بالثروات، ولذلك عمِلَ محمود الغزنوي على أن يجعل من غزواته عاصمةً أوسع مملكة في ذلك الوقت، فقد اهتم ببناء القصور والمساجد، وسار على نهجه أتباعه، ويُذكر أنه أنفق أموالاً طائلةً على بناء مسجده الذي لم يكن هناك ما يضارعه في ذلك الوقت. ووُصِفَ محمود الغزنوي بالعدل بين الرعية، كما عُرفَ عنه حبه للعلماء والتقرب منهم.

ويقول الدكتور أحمد العبد سليمان (١): «فما يلفت النظر أن محموداً كان حامياً للعلوم والآداب والفنون الجميلة، بقدر ما كان قائداً ورجل سياسة، وقد اجتمع في صالونه بغزنة من الشعراء عنصر وعسجدي وفرضي والفردوس وغيرهم من أدباء العصر وعلمائه، بحيث عجزت كل العواصم عن منافسته في ذلك، وازدانت غزنة في ذلك العصر بما لا مثيل له في غيرها من القصور والمساجد والقتوات والمباني الفخمة والآثار النافعة، لأن محموداً عَرَفَ كيف يستفيد من آثار الهند العمرانية، بنفس القدرة التي عَرَفَ بها كيف يغير عليها». وكان السلطان محمود يستدعي العلماء والشعراء إلى بلاطه في غزنة من أمثال عنصرى الشاعر البيروني والعالم والمؤرخ، كما استدعى الفردوسي الذي بذ أقرانه كثيراً.

ففي بلاطه نُظِمَ الفردوسي ملحمة الشهيرة الشاهنامه (كتاب الملوك) وكانت ٦٠ ألف بيت من الشعر، تدور حول أمجاد (أربع دول منها: البارثيون والساسانيون، ودولتان خرافيتان مأخوذتان من أساطير الأديفستا).^(٢)

وأظهرت هذه الملحمة اهتماماً زائداً بقصص البطولة والفروسية، وكانت مصدر إلهام العديد من شعراء الفُرس المتأخرين، كما كانت مصدر إلهام لبعض الشعراء الغربيين، ونتيجةً للشهرة التي حظيت بها هذه الملحمة في إيران فإنه قلما يوجد من لم يحفظ منها قليلاً وكثيراً حتى الآن، ويُذكر البعض أن محمود الغزني كان

(١) أحمد سعيد: تاريخ الدول الإسلامية: ج ٢، ص ٥٩٠.

(٢) أحمد شلبي: موسوعة تاريخ الحضارة: ج ٨، ص ٩٠.

مشغولاً بالأعمال الحربية ومهتماً بتوسيع دولته، ثم إن نفوراً حدث بينه وبين الفردوسي بسبب اهتمام الفردوسي بالمبالغة في مدح الفُرس بنى قومه في ملحمة الشاهنامه، وأنه يفضلهم على الأتراك الذين ينحدر منهم الغزنوي، ولعل هذا هو الذي جعل أُعطية السلطان المالية لهذا الشاعر قليلة، فوزعها على الناس استخفافاً بها، وعندما عَلِمَ السلطان بذلك طلبه، إلا أنه هرب يلجأ هنا وهناك، ويبدو أن السلطان



شكل (٤٢) الفردوسي

الغزنوى لم يعرف قدر الفردوسى إلا فى أواخر حياته، ولكن بعد فوات الأوان^(١). وقد كتب معاصرى الفردوسى مؤلفاتهم باللغة العربية، كما أن الحروف العربية حلت محل الحروف الفارسية، وجاء بعد الفردوسى من العلماء مَنْ كتب باللغتين العربية والفارسية مثل السعدي، ووُجِدَ بين العرب من عَرَفُوا اللغة الفارسية واهتموا بها^(٢).

واهتم بالأدب بعد محمود الغزنوى فى غزنة، أخوه نصر فى نيسابور وبخارى فى عهد السامانيين، ثم فى عهد الغزنويين وقصور العلويين والزيديين فى طبرستان، وقصور ملوك خوارزم فى مدينة خيو، إضافة إلى قصر الصحاب بن عباد وزير البويهيين فى أصفهان، وكان أبوريحان البيرونى من مشاهير العلماء، وقد عاش فى رعاية أمراء خوارزم فى أخيو، ثم عاش فى كنف قابوس شمس المعالى فى طبرستان، كما عاش أخيراً فى رعاية وكنف السلطان يمين الدولة محمود الغزنوى، وفى كل أفراد أسرته من بعده^(٣).

العلاقة بين الخلفاء العباسيين وسلطين السلاجقة:

عصر نفوذ الأتراك ٢٣٢-٣٣٤هـ / ٨٤٧-٩٤٥م:

رغم أن نفوذ الأتراك ظهر - كما رأينا - منذ عهد المعتصم، فإن استبدادهم بالأمر لم يظهر إلا بعد وفاة الواثق، وقد تمت بيعة جعفر المتوكل بن المعتصم بإرادة أحد زعمائهم البارزين وهو «وصيف»، بعد أن كادت البيعة تتم لمحمد بن الواثق وكان غلاماً. يقول أحد الشعراء:

خليفة فى قفص بين وصيف وبغا * يقول ماقلاً له كما تقول البغا**

ولم يكن المتوكل بالخليفة المستضعف، فحاول غير مرة أن يضع حداً لطغيان الأتراك؛ فقد دبّر مقتل إيتاخ بعد أن وصل نفوذه مدى لا يمكن قبوله، والملاحظ أن إيتاخ كان أثيراً لدى المعتصم والواثق. يقول الطبرى: «كان لإيتاخ رجلة وبأس فرفعه المعتصم ومن بعده الواثق حتى ضم إليه من أعمال السلطنة أموالاً كثيرة.. وكان من أراد المعتصم والواثق قتله فعند إيتاخ يقتل وييده يحبس»^(٤).

(١) موسوعة التاريخ الإسلامى: ج ٨، ص ٩٠.

(٢) إيران: ماضيها وحاضرها: ص ٥٥-٥٦؛ موسوعة التاريخ الإسلامى، ج ٨، ص ٩١.

(٣) تاريخ الأدب فى إيران: ص ١١٦-١١٧.

(٤) الطبرى: تاريخه، ج ٩، ص ١٦٦.

وقد استفحل نفوذ إيتاخ في خلافة المتوكل حتى إنه همَّ يوماً بقتل الخليفة حين تبسط الأخير معه في المزاح، وحين أدرك المتوكل خطورة إيتاخ دبر خطة ناجحة للتخلص منه في سنة ٢٣٥هـ / ٨٤٩م، ولكن القضاء على إيتاخ لم يضع نهايةً لتسلط غيره من الأتراك؛ ومن هنا أراد المتوكل في أواخر خلافته أن يوجه إليهم ضربةً قاصمة، فعزم على قتل «وصيف بُعَا» وغيرهما من قادة الأتراك، ولكن الأتراك كانوا أسرع منه فاستغلوا جفوةً كانت بينه وبين ابنه وولى عهده محمد المنتصر^(١)، فأشركوا المنتصر معهم في مؤامرة انتهت بقتل المتوكل ووزيره الفتح بن خاقان في شوال سنة ٢٤٧هـ / ٨٦١م، ثم نصّبوا المنتصر خليفة.

وهكذا نجح الأتراك في الإطاحة بخليفة وتتويج خليفة، وكان هذا حادثاً له ما بعده؛ فقد أصبح مثل هذا التصرف أمراً مألوفاً منهم إبان فترة سطوتهم، ولم تَطُل خلافة المنتصر؛ فقد توفى في ربيع الأول سنة ٢٤٨هـ / ٨٦٢م عن خمسة وعشرين عاماً تقريباً، وكان من الطبيعي أن يجتمع الأتراك ليختاروا من يشاءون للخلافة فاجتمعوا بزعامة بُعَا الصغير وبُعَا الكبير واختاروا أحمد بن محمد بن المعتصم الملقب بالمستعين، وكان في الثامنة والعشرين من عمره. ولكن بعد مضي وقت غير طويل غضب بعض قادة الأتراك على المستعين فبايعوا المعتز محمد بن المتوكل بالخلافة، واشتعلت بين أنصار المستعين وأنصار المعتز حرب انتهت بسجن المستعين ثم بقتله في سجنه، وقد كانتبيعة المعتز وخلع المستعين في المحرم سنة ٢٥٢هـ / ٨٦٧م.

يقول ابن الطقطقي عند تناوله لسيرة المعتز: «لم يكن بسيرته ورأيه وعقله بأس، إلا أن الأتراك كانوا قد استولوا منذ قتل المتوكل على المملكة واستضعفوا الخلفاء؛ فكان الخليفة في يدهم كالأسير، إن شاءوا أبقوه، وإن شاءوا خلعوه، وإن شاءوا قتلوه»^(٢)، وقد حدث أن طلب الأتراك من المعتز مالاً فاعتذر لهم بفراغ بيت المال فثاروا به وضربوه ومزقوا ملابسه وأقاموه في الشمس، فكان يرفع رجلاً ويضع أخرى من شدة الحر، وكان بعضهم يلطمه وهو يتقى بيده، ثم سجنوه في سرداب حتى مات، وكان ذلك في شعبان سنة ٢٥٥هـ / ٨٦٨م.

وكان أهمُّ تطورٍ حدث في نهاية خلافة المعتز هو بداية قيام الدولة الصفارية في فارس بزعامة يعقوب بن الليث الصفار، قد كانت هذه الدولة تدين إسمياً للخلافة وإن كانت مستقلة من الناحية العملية، وقد امتد سلطانها إلى خراسان في بعض

(١) المسعودي: مروج الذهب، ج٤، ص٦٠.

(٢) الفخرى، ص٢٢٠.

مراحلها (في أيام المعتمد)، ونجحت في عزل الطاهريين عنها، ورغم ضعف هذه الدولة بعد وفاة مؤسسها يعقوب في سنة ٢٦٥هـ / ٨٧٨م فإنها استمرت بعده حتى سنة ٢٨٩هـ / ٩٠١م^(١).

وفي عهد المعتز أيضاً في سنة ٢٥٤هـ / ٨٦٨م ذهب أحمد بن طولون إلى مصر نائباً عن واليها، ولكنه استطاع في فترة لاحقة أن يستقل بها عن العباسيين، وأن يضم الشام إلى سلطانه، وبذلك قامت الأسرة الطولونية واستمرت حتى ٢٩٢هـ / ٩٠٤م، حيث سقطت في خلافة المكتفي العباسي.

وبعد خلع المعتز بايع الأتراك المهتدي بالله محمد بن الواثق خليفةً للمسلمين، وقد كان المهتدي تقياً شجاعاً حليماً، وكان يتخذ من عمر بن عبدالعزيز مثله الأعلى ويقول: «إني أستحي أن يكون في بني أمية مثله ولا يكون مثله في بني العباس»، ولهذا نبذ الملاهي وحرّم الغناء والخمر وحارب الظلم، وفوق ذلك فقد أراد أن يوقف طغيان الأتراك واستبدادهم، فقتل بعضهم ولكنهم ثاروا عليه وأسروه وعذبوه ليخلع نفسه فأبى، فخلعوه هم وسجنوه ومات في سجنه من التعذيب، وكان ذلك في رجب سنة ٢٥٦هـ / ٨٦٩م^(٢).

وقد كان أهم ما شهده عهد المهتدي من أحداث هو بداية ثورة الزنج التي اندلعت في البصرة ونواحيها سنة ٢٥٥هـ / ٨٦٨م، وقد سميت هذه الثورة بثورة الزنج لأن عدداً كبيراً من المشتركين فيها كانوا من العبيد السود، رغم أنها ضمت عناصر أخرى. وقد تزعم هذه الثورة رجلٌ يقال له علي بن محمد ابن أحمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين علي بن أبي طالب، رغم ما يحيط بصحة هذا النسب من شكوك. وقد انتشر الزنج في العراق والبحرين وهجروا وعاثوا فساداً في تلك المناطق وروعوا الأمنين، واستمرت ثورتهم خمسة عشر عاماً حتى استطاع القائد العباسي الموفق طلحة بن المتوكل أن يبدد جموعهم، ويخمد ثورتهم سنة ٢٧٠هـ / ٨٨٣م في خلافة المعتمد.

وقد بويع المعتمد على الله أحمد بن المتوكل بالخلافة في سنة ٢٥٦هـ / ٨٦٩م بعد خلع المهتدي، وببيعة المعتمد بدأت صحوّة مؤقتة في تاريخ الخلافة في ذلك العصر.

(١) محمد حلمي أحمد: الخلافة والدولة في العصر العباسي، ص ١٣١-١٤٦.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ١٢، صفحات متفرقة؛ ابن الأثير: الكامل، ج ٧، ص ٤٧.

صحوة الخلافة العباسية (٢٥٦-٢٨٩هـ / ٩٦٦-٩٩٨م):

أدى تصاعد الصراع الداخلي بين قادة الأتراك، ثم سوء معاملتهم لجنودهم وازدياد شكوى الجمهور من مضايقاتهم، إلى خلق اتجاهٍ قويٍ داخل الجيش، يدور حول جعل القيادة العسكرية العليا في يد أحد أمراء البيت العباسي ممن يختارهم الخليفة ويدين له الجميع بالطاعة، وقد أمكن تنفيذ هذا المطلب في بداية عهد المعتمد سنة ٢٥٦هـ / ٨٦٩م، فكان هذا سبباً بارزاً من أسباب صحوة الخلافة، على أن هناك سبباً آخر تمثل في شخصية القائد الذي اختاره الخليفة المعتمد لتولى هذه المهمة - أي قيادة الجيش - وذلك القائد هو الموفق أو أحمد طلحة أخو الخليفة المعتمد؛ فقد كان الموفق شخصية تتمتع بالحزم والقوة وصلابة الإرادة، وهكذا وجد المنصب الخطير شخصيةً جديرةً بأن تملأه، فاستردت الخلافة قوتها وهيبتها، واستطاع الموفق أن يكبح جماح الأتراك، وأن يعيد تنظيم الجيش، وأن يُقَرَّ الأمن والنظام، ورغم أن المعتمد كان الخليفة الرسمي، فقد كان الموفق صاحب السلطة الفعلية، وهو الذي بيده العقد والحل. يقول ابن الطقطقي: «وكانت دولة المعتمد دولةً عجيبةً الوضع، كان هو وأخوه الموفق طلحة كالشريكين في الخلافة، للمعتمد الخطبة والسَّكَّة والتسمي بإمرة المؤمنين، ولأخيه طلحة الأمر والنهي وقيادة العسكر ومحاربة الأعداء ومرابطة الثغور وترتيب الوزراء والأمراء»^(١)، وقد كان أخطر وأهم إنجاز للموفق هو قضاؤه على ثورة الزنج في سنة ٢٧٠هـ / ٨٨٣م كما سبق أن ذكرنا.

(١) الفخرى، ص ٢٢٦.



ثورة الزنج سنة (٢٥٥-٢٧٠هـ/ ٨٦٨-٨٨٣م)

بعد انتصار العباسيين على ثورة الزنج أقام الخوفا بعد ذلك بالتوفيقية ليزداد الناس بمقاومة أعتا وأبناشاً، وأمر أن يكتب إلى أمصار الإسلام بالشاء في أهل البصرة والأبلة وكور دجلة وأهل الأهواز وكورها وأهل واسط وما حولها أن يعودوا إلى أوطانهم، وأرسل ابنه أبا العباس إلى مدينة السلام (بغداد) ومعه رأس صاحب الزنج لبراء الناس.



شكل (٤٣) ثورة الزنج

وتوفى الموفق في صَفَرِ سنة ٢٧٨ هـ / ٨٩١ م، وفي العام التالي (رجب ٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م) توفى الخليفة المعتمد، ويبيع بعده بالخلافة أبو العباس المعتضد بالله بن الموفق. وقد ورث المعتضد من أبيه الموفق قوة الشخصية، فاستمرت الخلافة في عهده موفورة الهيبة مسموعة الكلمة كما كانت في عهد أبيه وعمه المعتمد، ولقب بالسفاح الثاني، وفي ذلك يقول ابن الرومي:

هنيئاً بنى العباس إن أمامكم
إمام الهدى والبأس والجود أحمد
كما بأبي العباس أنشئ ملككم
كذا بأبي العباس أيضاً يجدد
إمام بظِلِّ الأمس يمل نحوه
بلهف ملهوف ويشاقه الغد

وبوفاة المعتضد في ربيع الآخر سنة ٢٨٩ هـ / ٩٠١ م انتهت الفترة التي اصطلح على تسميتها باسم «صحوّة الخلافة»، حيث تولى بعده ابنه المكتفى ولم تكن له شخصية والده أو جده، فكانت خلافته تمهيد لعودة الأمور إلى ما كانت عليه.

وقد كان من أخطر الأحداث التي شهدتها فترة صحوّة الخلافة ظهور القرامطة، وقد بدأ ظهور هذه الجماعة بسواد الكوفة في سنة ٢٧٨ هـ / ٨٩١ م بزعامة رجل اسمه حمدان، ويلقب بـ«قرمط»، ثم اشتدت شوكة القرامطة بظهور رجل آخر منه يعرف بأبي سعيد الجنابي بالبحرين في سنة ٢٨٦ هـ / ٨٦٩ م. وقد تظاهر قادة القرامطة بالزهد والتقشف وبالدعوة إلى إمام من آل البيت، ولذا انضم إليهم الكثيرون من سواد الكوفة والبحرين نظراً لتشييع تلك المناطق، وبرغم أن حركة القرامطة كانت تُظهر مبادئ براءة لاجتذاب الأنصار، فقد كانت حركة تهدف إلى هدم كيان المجتمع الإسلامي، وهي تمت ببعض الوشائج إلى حركات كحركة الخرمية أو الزنج، رغم أن حركة القرامطة كانت أكثر تعقيداً وخطراً وامتداداً في أعماق التاريخ، وهي تختلط أحياناً بالحركة الإسماعيلية، ويطلق عليها أحياناً حركة الحشاشين^(١). وقد أعيت العباسيين، وحقق الفاطميون ضدها انتصارات هامة، ولكن الحديث التفصيلي عن هذه الحركة الأخيرة في التاريخ الإسلامي يخرج بنا عما نحن بصدده.

ذكرنا إن خلافة المكتفى سنة ٢٨٩ هـ / ٩٠١ م أنهت الصحوّة المؤقتة للخلافة، ورغم أن المكتفى لم يُقَلِّ ولم يُخَلِّع، بل تُوفى وفاةً طبيعية في ذي القعدة سنة

٢٩٥ هـ / ٩٠٧ م، ورغم أنه كان يتحلى بكثيرٍ من الصفات الإيجابية، فإن سيطرته على مقاليد الأمور كانت أقل من سيطرة سلفيه العظيمين، وقد ازدادت الأمور تدهوراً بعد وفاته؛ فقد تولى جعفر بن المعتضد الخلافة وهو صبي في الثالثة عشرة من عمره ولقب بالمقتدر بالله، وكان طبيعياً أن تصبح الخلافة نهياً للطامعين والخليفة لم يبلغ الحلم.

يقول ابن الطقطقي: «واعلم أن دولة المقتدر كانت دولة ذات تخطيطٍ كثيرٍ لصغر سنه، ولإستيلاء أمه ونسائه وخدمه عليه؛ فكانت دولته تُدَوَّرُ أموره على تدبير النساء والخدم وهو مشغول بلذته، فخربت الدنيا في أيامه وخرَّبت بيوت الأموال واختلفت الكلمة فخلع ثم أعيد ثم قُتل (١)، وقد كان من أهم الأحداث التي شهدتها عهد المقتدر ظهور الفاطميين في المغرب في أواخر القرن الثالث الهجري، حيث قضوا على دولة الأغالبة في تونس، واستولوا على مدينتهم القيروان في سنة ٢٩٦ هـ / ٩٠٨ م، وسوف تتسع الدولة الفاطمية فيما بعد وتستولي على مصر سنة ٣٥٨ هـ / ٩٦٨ م، وقد استطاع الحمدانيون أيضاً أن يستولوا بالموصل في عهد المقتدر سنة ٣١٧ هـ / ٩٢٩ م، ثم استولوا بعد عهده (في سنة ٣٣٣ هـ / ٩٤٤ م) على حلب تحت زعامة سيف الدولة الحمداني.

يتضح من هذه الإشارات الخاطفة مدى تقلص نفوذ الخلافة في عهد المقتدر؛ وذلك أن الخليفة فقد سيطرته حتى على أجزاء هامة من العراق كالموصل حيث الحمدانيون، والكوفة حيث القرامطة، هذا فضلاً عن انعدام سيطرته تماماً على أجزاء عريضة في الشرق والغرب، وقد قُتل المقتدر في شوال سنة ٣٢٠ هـ / ٩٣٢ م في معركةٍ بينه وبين قائده مؤنس الخادم.

وفي الفترة التي تليت مقتل المقتدر حتى بداية ظهور البويهيين في العراق اعتلى العرش أربعة خلفاء هم القاهر (٣٢٠-٣٢٢ هـ / ٩٣٢-٩٣٣ م)، والراضي (٣٢٢-٣٢٩ هـ / ٩٣٣-٩٣٤ م)، والمتقى (٣٢٩-٣٣٣ هـ / ٩٤٠-٩٤٤ م)، والمستكفي (٣٣٣-٣٣٤ هـ / ٩٤٤-٩٤٥ م)، ولم يكن لهؤلاء الخلفاء حول ولا قوة؛ فانتشرت في أيامهم الفوضى والاضطرابات والفساد، واشتد الصراع على كرسي الوزارة، وبرز في هذه الحلبة رجالٌ من أمثال ابن الفرات، وابن مُقلّة، وعلي بن عيسى وغيرهم، وكثرت المصادرات فانعدم الإحساس بالطمأنينة والأمن، واستغل بعض الولاة هذه

الظروف فرفضوا إرسال الأموال إلى العاصمة، ومن هؤلاء محمد بن رائق والى البصرة، والبريدى والى الأهواز، وأسس الإخشيدون دولة بمصر سنة ٣٢٤ هـ / ٩٣٥ م، كما استولى البويهيون على فارس، وفي ظل هذه الظروف المضطربة نشأ منصب أمير الأمراء.

أمير الأمراء:

ترجع نشأة هذا المنصب إلى عهد الخيفة الراضى؛ فقد عهدَ هذا الخليفة إلى ابن رائق برئاسة الجيش والإشراف على شئون الخراج، وفي نفس الوقت خلع عليه لقب «أمير الأمراء»، أى أنه فوض إليه تدبير المملكة. وهكذا أصبح الخليفة بدون سلطان حقيقى، حيث تولى المسئولية عنه أمير الأمراء الذى تركزت فى يده السلطة وآل إليه الأمر والنهى. فليس من المستغرب إذن أن تشرئب إلى هذا المنصب الخطير أعناق كبار رجال الدولة وقادتها، وأن يتقاتلوا من أجله، فازدادت الأحوال بذلك اضطراباً وتدهوراً، واستمرت على هذا النحو فى عهد المتقى الذى خلف الراضى، ثم فى عهد المستكفى، وكان هذا الوضع وراء ظهور النفوذ البويهى فى بغداد سنة ٣٣٤ هـ / ٩٤٥ م.

عصر نفوذ البويهيين (٣٣٤-٤٤٧هـ / ٩٤٥-١٠٥٥م):

يُنسب بنو بويه أو البويهيون إلى رأس الأسرة أبي شجاع بويه الذي نشأ في بلاد الديلم، وتقع تلك البلاد في الجنوب الغربي لبحر قزوين أو بحر الخزر بين منطقة طبرستان والجبّال، وقد نشأ بويه هذا فقيراً، وكان له ثلاثة أولاد هم أحمد وعلی والحسن، الذين لُقّبوا فيما بعد بمعز الدولة وعماد الدولة وركن الدولة على الترتيب. والتحق هؤلاء الإخوة الثلاثة بجيش «ما كان بن كالي» أحد قادة العلويين ببلاد الديلم؛ فقد كانت الجندية في ذلك الوقت مورداً للرزق، ولم يلبث هؤلاء الإخوة أن أظهروا في خدمتهم في جيش «ما كان» مهارةً عسكريةً عاليةً فارتفع شأنهم، ولكن «ما كان» دخل بعد ذلك في صراع مع منافسٍ فارسيٍّ آخر في تلك المناطق اسمه «مرداويج بن زيار»، وأحسّ البويهيون الثلاثة أن انضمامهم لجيش مرداويج سيكون أكثر تأميناً لمستقبلهم، لأن مرداويج كان قد قوى أمره في حين ضعف أمر «ما كان»، وهكذا انضموا لمرداويج الذي رَحّبَ بهم، بل إنه ولى أحدهم وهو علی بن بويه إقليم «الكرج»، فكان ذلك نقطة انطلاق البويهيين نحو المجد؛ فقد نجح «علی» بعد ذلك في السيطرة على معظم بلاد فارس، واستطاع أخوه أحمد بن بويه - بتشجيعٍ منه - أن يتقدم صوب العراق، وأن يستولى على الأهواز وواسط.

وكانت الخلافة في تلك الفترة - كما ذكرنا - تعاني من الفوضى الضاربة والنزاع حول منصب أمير الأمراء، فأغرّت انتصارات أحمد بن بويه عدداً من قواد بغداد أن يكتبوه ويطلبوا منه القدوم إلى عاصمة الخلافة ليضع حداً للفوضى بها، ووجدت تلك المبادرة ترحيباً كاملاً من الخليفة المستكفي الذي أحسن استقبال أحمد بن بويه، وعينه أميراً للأمراء وخلع عليه لقب «معز الدولة»، كما لُقّب أخاه علياً «عماد الدولة»، وأخاه الحسن «ركن الدولة»، وكان «علي» حاكماً لإقليم فارس، وكان الحسن حاكماً لإقليمي الري والجبّال عند دخول أحمد بن بويه بغداد في ربيع الثاني سنة ٣٣٤هـ / ٩٤٥م.

وهكذا بدأ عصرٌ جديدٌ متميزٌ الملامح في تاريخ الخلافة، وهو الذي يعرف باسم عصر نفوذ البويهيين، وقد تولى منصب الخلافة في ذلك العهد أربعة خلفاء هم المطيع (٣٣٤-٣٦٣هـ / ٩٤٥-٩٧٣م)، والطائع (٣٦٣-٣٨١هـ / ٩٧٣-٩٩١م)، والقادر (٣٨١-٤٢٩هـ / ٩٩١-١٠٣٧م)، والقائم الذي تولى الخلافة في سنة ٤٢٢هـ / ١٠٣٠م وعاصر بداية نفوذ السلاجقة في سنة ٤٤٧هـ / ١٠٥٥م.

وتجدر الإشارة إلى أن الخليفة المستكفي الذي كان آخر خلفاء عصر نفوذ الأتراك استمر في منصب الخلافة مدة تقل عن شهرين بعد ظهور النفوذ البويهى؛ فقد خلعه معزالدولة في أول جمادى الآخر سنة ٣٣٤هـ / ٩٤٥م، ثم أمر به فسلمت عيناه^(١)، وبإيعاع بعده بالخلافة أبا القاسم الفضل بن المقتدر ولقبه بالمطيع لله. لنا أن نستنتج من هذه البداية القاسية لعصر البويهيين أن الخلفاء في تلك الفترة لم ينعموا بوضع أفضل مما نعموا به في ظل نفوذ الأتراك، ولا بد أن نلاحظ هنا أن البويهيين كانوا شيعية فلم يكن الخلفاء يتمتعون لديهم بأى اعتبار دينى، فضلاً عن الاعتبار السياسى الذى فقدته هؤلاء منذ قرن تقريباً. فلم يكن تاريخ الخلافة فى العصر البويهى إلا تاريخاً للبويهيين الذين أصبح لهم حق تعيين الوزراء والقواد وغيرهم من كبار رجال الدولة، وتحول الخليفة بذلك إلى مجرد «موظف» فى مملكة البويهيين، يحدد له هؤلاء دوره وراتبه بالصورة التى يريدون، وقد كان سهلاً على البويهيين الشيعة أن يسقطوا الخلافة السننية فى بغداد، ويقيموا خلافة شيعية، خصوصاً إذا عرفنا أن الدولة الفاطمية كانت قد وطدت أقدامها فى الشمال الإفريقى حينذاك، ولكن البويهيين أصغوا لنصيحة من حذرهم من خطورة وجود خليفة شيعى يعتقد أصحابهم بصحة إمامته؛ ذلك أن البويهيين سيصبحون مشلولى الإرادة مع الخليفة الشيعى، وليس الأمر كذلك مع الخليفة السننى الذى لا يؤمنون هم ولا أصحابهم بصحة خلافته.

ومهما يكن فإن نفوذ البويهيين بالعراق بدأ يتعرض لامتحانات قاسية بعد وفاة أحمد بن بويه (معزالدولة) فى ربيع الآخر سنة ٣٥٦هـ / ٩٦٦م؛ ذلك أن عزالدولة بختيار بن معزالدولة الذى خلف والده على شئون العراق كان ضعيف التدبير، مكباً على اللهو، فتدهورت الأمور فى عهده، وانتشرت الدسائس، مما شجع ابن عمه عضدالدولة بن ركن الدولة أن يتقدم بجيوشه صوب بغداد وأن يخلع بختيار ويسجنه، ولكن ركن الدولة لم يرض من ابنه عضدالدولة ذلك التصرف؛ فأعيد بختيار على أن يحكم العراق باسم ركن الدولة، وعندما توفى ركن الدولة وجد ابنه عضد الدولة أن الفرصة مواتية لتوجيه ضربة قاصمة لبختيار، فهاجمه فى بغداد وقتله فى شوال سنة ٣٦٧هـ / ٩٧٧م، وهكذا آل حكم أرض العراق نهائياً لعضد الدولة وأسرته، وقد بلغ نفوذ بنى بويه واتساع سلطانهم إلى ذروته فى

(١) مات المستكفي سنة ٣٣٨هـ عن ست وأربعين سنة فى سجنه بدار معز الدولة. أنظر: النجوم الزاهرة، ج ٣، ص ٢٩٩.

عهد عضد الدولة، الذي كان أول من خطب بالملك شاهنشاه في الإسلام^(١). وبعد وفاة عضد الدولة في سنة ٣٧٢هـ / ٩٨٢م تجدد الصراع على السلطة في بغداد، وكان أطراف الصراع الأساسيون هم أولاد عضد الدولة الثلاثة شرف الدولة وصمصام الدولة وبهاء الدولة. ودخل هذا الصراع في مراحل طويلة مات خلالها شرف الدولة سنة ٣٧٩هـ / ٩٨٩م، وقُتل صمصام الدولة في سنة ٣٨٨هـ / ٩٩٨م، فاستقر الأمر لبهاء الدولة بدون منازع.

ولا شك أن هذا الصراع الداخلي قد ترك آثاره السلبية على نفوذ البويهيين في العراق، وقد تجدد هذا الصراع بعد وفاة بهاء الدولة في سنة ٤٠٣هـ / ١٠١٢م؛ فَقَدَ عَهْدَ بهاء الدولة بالملك من بعده لابنه أبي شجاع سلطان الدولة، الذي اضطر لخوض عدة حروب ضد أخيه ومنافسه مشرف الدولة، وبعد سنواتٍ من النزاع والفتن توصل الأخوان إلى عقد صلح بينهما، اعترف فيه مشرف الدولة بسلطة أخيه في العراق، ثم مات سلطان الدولة في سنة ٤١٥هـ / ١٠٢٤م، وفي العام التالي ٤١٦هـ / ١٠٢٥م مات أخوه شرف الدولة، فتولى الأمر بعده في العراق أبوظاهر جلال الدولة بن بهاء الدولة الذي استمر في سلطنته حتى وفاته في شعبان سنة ٤٣٥هـ / ١٠٤٢م، ولم يدم ملك البويهيين طويلاً بعد وفاة جلال الدولة؛ فقد خلفه ابنه الملقب أبو كاليجار بن سلطان الدولة بن بهاء الدولة الذي استطاع أن يستولى على السلطة ببغداد سنة ٤٣٦هـ / ١٠٤٤م، وبعد وفاته في سنة ٤٤٠هـ / ١٠٤٨م خلفه ابنه أبونصر الملقب بالملك الرحيم، وكان ذلك آخر سلاطين البويهيين في العراق، فقد أسقطه السلاجقة سنة ٤٤٧هـ / ١٠٥٥م.

لعله يتضح من هذا العرض السريع مدى اضطراب أحوال البويهيين بعد وفاة عضد الدولة، ويمكننا القول أن دولة البويهيين اكتسبت نفوذها الحقيقي في العراق على يد مؤسسها هناك معز الدولة، ثم على يد عضد الدولة، وقد سبق أن ذكرنا أن هذه الدولة لم تكن تنظر إلى الخليفة العباسي نظرة التقدير، فقدت الخلافة هيبتها ومكانتها تحت نفوذ البويهيين، كما أن تعصب هؤلاء للمذهب الشيعي أوغر صدور أهل السنة في العراق، فتعددت الاصطدامات بين السنة والشيعية وكثرت الاضطرابات.

(١) أبوالمحسن: النجوم الزاهرة، ج ٤، ص ١٤٢.



وإبان فترة التدهور التي مرت بها دولة البويهيين، كانت هناك بذور دولةٍ فتيةٍ تتخلق في خراسان وما وراء النهر، هي دولة الأتراك السلاجقة الذين برزوا على مسرح الأحداث في حوالي سنة ٤٣٠ هـ / ١٠٣٨ م، واستطاعوا أن يقضوا على نفوذ الدولتين الغزنوية والبويهية^(١)، وقد كان صعود نجمهم بالإضافة إلى اعتناقهم المذهب السنّي سبباً في أن يرحب بهم الخليفة العباسي القائم بالله عندما تطلعوا إلى التقدم نحو العراق لتخليص الخلافة من قبضة البويهيين الشيعة وانحرافهم.

الدولة السلجوقية : (٤٤٧-٥٩٠ هـ / ١٠٥٥-١١٩٣ م):

السلاجقة أسرة تركية كبيرة من تلك الأسر التي استوطنت بلاد تركستان إلى الشرق من البلاد الإسلامية، وهي تنتسب إلى زعيمه سلجوق، وقد هاجرت هذه الأسرة بقيادة سلجوق إلى بلاد خراسان في أوائل القرن الخامس الهجري، وكان النفوذ السائد في تلك البلاد في ذلك الوقت هو نفوذ الغزنويين، وبعد سلسلة من الصراع على النفوذ بين الغزنويين والسلاجقة استطاع السلاجقة أن يُنزلوا هزيمة ساحقة بجيوش السلطان مسعود الغزنوي عند «مرو» سنة ٤٣٣ هـ / ١٠٤١ م، فاضطر الغزنويون إلى التقهقر داخل حدود الهند^(٢).

السلاطين العظام:

طغرل بك (٤٣٢-٤٤٥ هـ / ١٠٣٧-١٠٦٣ م):

وجد السلاجقة في المراحل الأولى لظهور قوتهم زعيماً فذاً استطاع المضي بانتصاراتهم قدماً وتأسيس دولتهم، وذلك هو طغرل بك (محمد بن ميكائيل) فبعد هزيمة الغزنويين في سنة ٤٣٣ هـ / ١٠٤١ م، تمكن طغرل بك من إعلان قيام دولة السلاجقة في خراسان وبلاد ما وراء النهر، ولا شك أن اعتناق هؤلاء الأتراك المسلمين للمذهب السنّي كان عنصراً هاماً من عناصر توطيد سلطانهم الرسمي بعد وقتٍ غير طويل، فقد اتصل طغرل بك بالخليفة العباسي «القائم» يعلن له

(١) أسس الغزنويون دولتهم في أفغانستان والبنجاب في حوالي منتصف القرن الرابع الهجري، ثم استولت دولتهم على أجزاء كبيرة من الهند وخراسان وفارس. وأشهر سلاطينهم محمود بن سبكتكين وكانت عاصمتهم «غزنة» في شمال الهند واليها ينتسبون.

(٢) عبدالمنعم حساتين: سلاجقة إيران والعراق، ص ٢١.

الولاء والتبعية، فما كان من الخليفة إلا أن أرسل إليه يُعَيِّنُه نائباً عنه في خراسان وبلاد ما وراء النهر وفي كل ما يفتتحه بعد ذلك من البلاد، وهكذا أضفى السلاجقة على وجودهم مظهراً شرعياً ساعداً على إرساء دعائم دولتهم عسكرياً وسياسياً وعلى كسب مزيد من الأنصار^(١).

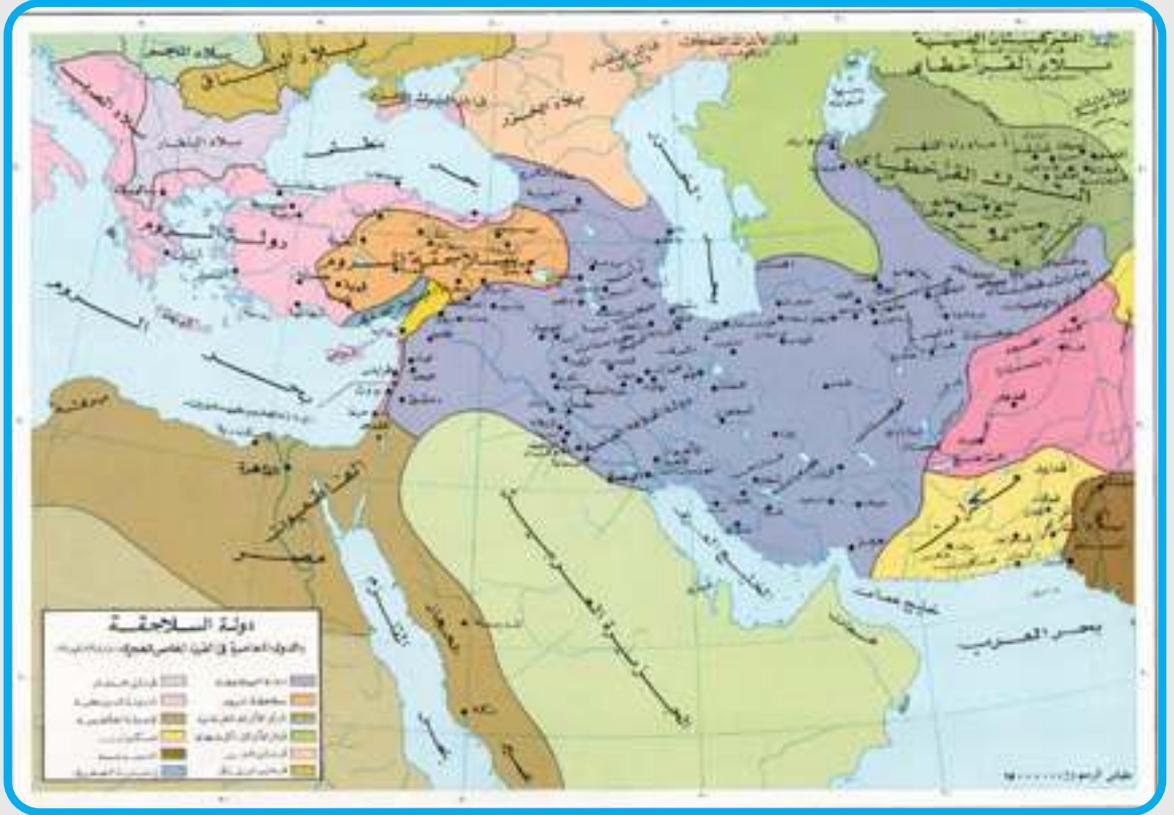
ثم جاءت الخطوة التالية التي كان لها آثاراً بعيدة المدى على مسرح التاريخ الإسلامي؛ فقد كان البويهيون في العراق يزدادون ضعفاً وإنقساماً، وكانت الفتن بين السُّنَّة والشيعية يضطرم لهيبتها، وتزداد حدة بتعصب البويهيين للشيعية، وقد استغل هذه الظروف المضطربة أحد القادة الأتراك التابعين للسلطان البويهى «الملك الرحيم»، فأعلن تحديه للخليفة وللسلطان البويهى معاً، وحاول أن يجعل بغداد تابعة للخليفة الفاطمي المستنصر في مصر، واسم هذا القائد التركي أبوالحارث أرسلان، وهو المعروف بالبساسيري، وقد استفحل أمر البساسيري في بغداد ووقف الخليفة العباسي القائم عاجزاً أمام مشكلته، فاستجد بطغرل بك الذي خَفَّ لنجدته مسروراً بهذا التشريف من الخليفة السُّنِّي، وتقدم طغرل بك بجيوشه صوب بغداد فدخلها في سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م، «فاستقبله الخليفة القائم بحفاوةٍ بالغةٍ، ولقبه بـ «ملك الشرق والغرب»، وهرب البساسيري من بغداد بوصول طغرل بك إليها، كما أن آخر سلاطين البويهيين «الملك الرحيم» حُمِلَ أسيراً إلى الري، حيث سُجِنَ هناك، وبعد أن اطمأن طغرل بك إلى استتباب الأمر في بغداد رجع إلى مقر مملكته بخراسان^(٢).

ولكن البساسيري لم يستسلم بسهولة؛ فقد كاتب «المستنصر صاحب مصر ومشت الرسل بينهما»، واتصل بغيره من أعداء الخليفة، بل أنه أغرى «إبراهيم بنَّال» - وهو أخو طغرل بك لأمه - أن ينشق على أخيه، فاستطاع البساسيري بذلك أن يضمن انشغال طغرل بك عنه بفتنة أخيه، ثم إن العون الذي تلقاه هذا الثائر من المستنصر الفاطمي مَكَّنَهُ من أن يدعم مركزه وأن يُمَعِنُ في عصيانه. يقول بعض المؤرخين: «إن الذي وصل إلى البساسيري من المستنصر من المال خمسمائة ألف دينار، ومن الثياب ما قيمته مثل ذلك، وخمسمائة قرش وعشرة آلاف قوس، ومن السيوف ألوف، ومن الرماح والنشاب شئ كثير»^(٣).

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ٩، ص ١٧٦-١٧٩.

(٢) الراوندى: راحة الصدور، ص ١٨٥.

(٣) بوالمحاسن: النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ١١-١٢.



شكل (٤٥) الدولة السلجوقية

وقد استطاع البساسيري بعد أن قوّي نفوذه أن يدخل بغداد بجيوشه في الثامن من ذي القعدة سنة ٤٥٠ هـ / ١٠٥٨ م، وأن يقيم الخطبة بعاصمة الخلافة العباسية للمستنصر الفاطمي، وذلك يوم الجمعة ١٣ من ذي القعدة من نفس العام، وقد قبض البساسيري على وزير الخليفة القائم، وهو رئيس الرؤساء أبو القاسم بن السلمة وقتله بعد أن أذاقه صنوف العذاب، ثم جمع القضاة وأشرف بغداد وأخذ عليهم البيعة للخليفة الفاطمي، أما الخليفة القائم فقد استجار بأحد الأمراء الذين تحالفوا مع البساسيري، واسمه قريش بن بدران أمير بني عقيل فأجاره، وبهذا نجا الخليفة من القتل.

وفى تلك الأثناء تمكن طغرل بك من هزيمة أخيه «إبراهيم يئال» وقتله فاستطاع أن يوجه جهوده نحو البساسيري، وأن يلبي بذلك نداء الخليفة القائم، الذي ذهبت حاشيته إلى طغرل بك تستغيث به بعد أن سقطت بغداد في يد هذا الثائر، ولم تصمد جيوش البساسيري طويلاً أمام زحف طغرل بك، فقد تعرضت لهزيمة ساحقة نُوجت بالقبض على البساسيري وقتله شر قتلة في أواخر سنة ٤٥١هـ / ١٠٥٦م، فانتهدت بذلك هذه الفتنة الهوجاء، وعاد الخليفة العباسي القائم إلى بغداد في ظل الحماية السلجوقية، ومنذ ذلك التاريخ بدأ النفوذ العملي الحقيقي للسلجقة في مقر الخلافة^(١).

ولقد كان خضوع الخلافة لنفوذ الأتراك السلجقة بدايةً لمرحلة متميزة في تاريخها؛ فالسلجقة - كما قلنا - كانوا من أنصار المذهب السني، على عكس أسلافهم البويهيين الذي كانوا يختلفون عن أسلافهم الأتراك السنيين الذين استكثر منهم المعتصم، ثم تحولوا بعد ذلك إلى كابوس يُجثم على صدر الخلافة؛ ذلك أن السلجقة كانوا يرون في الخلافة السنية رمزاً دينياً يعبر عن الوحدة الإسلامية الصحيحة، وينظرون إلى الخليفة على أنه تجسيداً حيّ لذلك الرمز، ولهذا أحاطوه بهالة من التقدير والإكبار، وهكذا نعمت الخلافة العباسية بشيئين لم تنعم بهما مجتمعين في ظل نفوذ الأتراك البويهيين: أولهما هو سيادة المذهب السني في أرض الخلافة؛ وثانيهما هو إحاطة الخلافة بما هي أهل له من صيانة وإجلال. وعن ذلك فلا بد أن نشير إلى أن سلطة الخليفة في العصر السلجوقي كانت روحية أكثر منها سياسية؛ فقد أدار السلجقة دفة السياسة الداخلية والخارجية للدولة، ووقع الخلفاء بصفة عامة بممارسة الأدوار التي كانت تُرسم لهم، في الوقت الذي نعموا فيه بزوال شبح الخلع والسمل والقتل الذي سلبهم الأمن والطمأنينة فيما مضى.

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ١٠، ص ٢٨.

ألب أرسلان (٤٥٥-٤٦٥ هـ / ١٠٦٣-١٠٧٢ م):

لما وُلِّيَ ألب أرسلان السلطنة، ودخل الري مع وزيره نظام الملك، واستقبله الكندري - وزير طغرل - أحسن استقبال، وقدم له الهدايا، وهنأه بالسلطنة، ولكن نظام الملك خشي أن تظل الوزارة من نصيب الكندري - وكان يتطلع إليها - وساءه أيضاً التفاف الجند والناس حول الكندري، لذا دبر مؤامرة للتخلص منه حتي يئول إليه نفوذه وسلطانه، فحرض ألب أرسلان علي غريمه - الكندري - وحذره منه، فأوجس ألب أرسلان خيفة من الكندري، بل أمر بالقبض عليه، وقَتَلَ قَتْلَةً شَنِيعَةً، وقبل أن يُقَتَلَ الكندري أرسل رسالتين، الأولى إلي ألب أرسلان، والثانية إلي نظام الملك، جاء في الأولى للسلطان: «لقد خدمتني خدمةً جليلاً، فقد أعطاني عَمَّكَ مُلْكَ الْعَالَمِ الدُّنْيَوِيِّ لِأَتَصَرَّفَ فِيهِ، فَلَمَّا أَمَرْتَ بِقَتْلِي أَعْطَيْتَنِي مُلْكَ الْعَالَمِ الْآخَرَ جِزَاءً لِاسْتِشْهَادِي، وَبِذَلِكَ تَمَّ لِي عَلَي يَدَيْكُمَا امْتِلاكِ الدَّارَيْنِ الْفَانِيَةِ وَالْبَاقِيَةِ». وفي الرسالة التي بعثها إلي نظام الملك حذره من العواقب الوخيمة التي ستعود علي الدولة من جراء قتل الوزراء، وأول من سيشرب من نفس الكأس - بعد الكندري - نظام الملك. قال الكندري لنظام الملك: «بئسما عَوَّدَتِ الْأَتْرَاكُ قَتْلَ الْوِزَرَاءِ وَأَصْحَابِ الدِّيْوَانِ، وَمَنْ حَفَرَ لِأَخِيهِ حُفْرَةً وَقَعَ فِيهَا، وَلَقَدْ تَجَاوَزَ هَذَا الْوِزِيرُ السَّيِّئُ الطَّالِعِ الْأَرْبَعِينَ مِنْ عَمْرِهِ حِينَ مَقْتَلِهِ، وَكَانَ عَالِماً بِالدِّينِ، وَنَظَّمَ قِصَائِدَ شَعْرِيَّةً رَائِعَةً، وَمَنْ الْمَتَعَصِبِينَ لِلْمَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ، وَنَاصِبِ الْعِدَاءِ لِلرَّافِضَةِ وَالْأَشَاعِرَةِ، وَأَمْرٍ بَلْعَنَهُمْ فِي الْمَسَاجِدِ، وَتَحَقَّقَ لِنِظَامِ الْمَلِكِ مَا كَانَ يَسْعَى إِلَيْهِ، فَوَلَاهُ السُّلْطَانُ أَلْبَ أَرْسَلَانَ وَزَارَةَ الدَّوْلَةَ السَّلْجُوقِيَّةَ. حَرَصَ السُّلْطَانُ أَلْبَ أَرْسَلَانَ عَلَى الْمَحَافِظَةِ عَلَي مَمْتَلِكَاتِ الدَّوْلَةِ السَّلْجُوقِيَّةِ (١)؛ وَتَوَسَّعَ رِقْعَةُ أَرْضِيهَا، فَلَمَّا وُلِّيَ السُّلْطَانَةُ شَقَّ أَمِيرُ خْتَلَانَ عِصَا الطَّاعَةِ، وَمَنْعَ مَا كَانَ يُؤَدِّيهِ مِنْ مَالٍ إِلَي الْحُكُومَةِ السَّلْجُوقِيَّةِ، فَعَمَلَ أَلْبَ أَرْسَلَانَ عَلَي سَحْقِ تَمْرَدِهِ، فَسَارَ إِلَيْهِ عَلَي رَأْسِ حَمَلَةٍ حَرْبِيَّةٍ، وَلَمَّا بَلَغَ خْتَلَانَ، تَحَصَّنَ أَمِيرُهَا فِي الْقَلْعَةِ، وَهَاجَمَ السُّلْطَانُ السَّلْجُوقِيُّ الْقَلْعَةَ، وَشَدَّدَ عَلَيْهَا الْحِصَارَ حَتَّى اسْتَسْلَمَ أَمِيرُ خْتَلَانَ، وَعَادَتِ هَذِهِ الْوَالِيَّةُ إِلَي الْوَلَاءِ وَالطَّاعَةِ لِلْسُّلْطَانِ السَّلْجُوقِيِّ. وَلَمْ تَنْتَهَ مَتَاعِبُ أَلْبَ أَرْسَلَانَ عِنْدَ هَذَا الْحَدِّ، بَلْ سَارَ إِلَي صَغَانِيَانَ الَّتِي حَذَتْ حَذُوَ خْتَلَانَ فِي التَّمْرَدِ وَالْعِصْيَانِ، وَحَاوَلَ أَمِيرُهَا الْإِسْتِقْلَالَ عَنِ الْحُكْمِ السَّلْجُوقِيِّ، وَاسْتَطَاعَ أَلْبَ أَرْسَلَانَ إِعَادَةَ صَغَانِيَانَ إِلَي الْوَلَاءِ

(١) الراوندي: راحة الصدور، ص ١٨٥-١٨٦.

والطاعة، وقد توطد نفوذ ألب أرسلان في دولته بعد أن دحض كل هذه المحاولات الانفصالية، ولم يلبث أن ازداد نفوذه بعد أن اعترف الخليفة العباسي به سلطاناً، وأرسل إليه التقليد والخلع بمشهد من الناس، وبذلك اكتسب حُكْمَه الصفة الشرعية^(١).

ولم يواجه ألب أرسلان حركات العصيان من ولاته فقط، بل واجه مصاعب من أفراد أسرته، ومن ذلك أن شهاب الدولة قتلش تطلع إلي الوصول إلي عرش السلطنة، فأعدَّ العُدَّةَ لقهر هذه الحركة، وسار لملاقاة غريمه، ولما اقترب منه أرسل إليه ينكر عليه فعله وينهاه عن العصيان ويدعوه إلي الطاعة، وأبدي استعداداً للعفو عنه، لأنه يراعي له القرابة والرحم، لكن قتلش لم يستجب لنداء السلطان، فقد اغتر بكثرة جمعه، وأطلق لجنده العنان، فنهبوا قري الري^(٢)، ولذلك لم يعد هناك بد من الحرب والقتال، ومهما يكن من أمر، فقد التقى الجمعان في معركة دارت فيها الدائرة علي قتلش وجنده، بل وقُتِل في المعركة وبذلك عادت إلي الدولة السلجوقية وحدتها، وقوي مركز سلطانها، كذلك أحبط السلطان ألب أرسلان محاولة عمه بيغو للاستقلال بإقليم هراة سنة ٤٥٧هـ / ١٠٦٥م، وطَهَّرَ هذه البلاد من الثوار، وأعاد الأمن والنظام في جميع أنحاء خراسان وبلاد ما وراء النهر.

اتخذ ألب أرسلان بعد أن استتب له الأمر في دولته سياسة تنطوي علي توسيع رقعة أراضيها، وذلك ببسط النفوذ السلجوقي علي بلدان الدولة الفاطمية في مصر والشام، والسيطرة علي البلاد المسيحية المجاورة، ونشر الإسلام في غير بلاد الإسلام.

بدأ ألب أرسلان يقترب من النزاع في الأقاليم المسيحية المجاورة لدولته، واتجه صوب الغرب بفتح بلاد الأرمن وجورجيا والأجزاء المجاورة لها من بلاد الروم، وكان أهل هذه البلاد يكترون من الإغارة علي إقليم أذربيجان حتي أصبحوا مصدر قلق لسكانه، الأمر الذي شجع السلطان السلجوقي علي سرعة العمل علي كبح جماح هؤلاء القوم، والسيطرة علي بلادهم المجاورة للدولة البيزنطية.

(١) الحسيني: أخبار الدولة السلجوقية، ص ١٤.

(٢) حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي، ص ٢١٩.



بدأ ألب أرسلان حركته الحربية بالاستيلاء علي الجزء الأكبر من البلاد الواقعة بين بحيرة وان وأرمينية، كما سيطر علي جورجيا وبلاد الأرمن، وقد أزعج ذلك أميرطور الروم رومانوس ديوجينيس، وأدرك ان التوسع السلجوقي لا يقف عند حد، بل يُشكل خطراً علي دولته، فاعتزم تحويل أنظار السلاجقة عن بلاده، فسار إلي بلاد الشام في عسكرٍ كثيف، وأغار علي مدينة منبج ونهبها وقتل أهلها، وهزم صاحبها محمود بن صالح بن مرادس ومن معهم من جموع العرب، وعاد إلي القسطنطينية^(١).

ولما رأى صالح فرادس - أمير حلب - قوة الدولة السلجوقية، عمل علي الدخول في طاعة السلطان السلجوقي، فجمع أهل حلب وقال: «هذه دولةٌ جديدةٌ، ومملكةٌ شديدةٌ، وهم يَسْتَحِلُّونَ دماءكم لأجل مذاهبكم، والرأي أن نقيم الخطبة قبل أن يأتي وقت لا ينفعا فيه قوة ولا بذل». فاستجاب الحاضرون لدعوته، وأقيمت الخطبة في حلب للخليفة العباسي القائم بأمرالله، والسلطان السلجوقي، وسار ألب أرسلان إلي حلب، وأدخلها في حوزته، وبذلك آلت إلي الخلافة العباسية بعد أن كانت تابعة للدولة الفاطمية.

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، ج ٤، ص ٢٥٨-٢٥٩.



شكل (٤٦) أقصى مدى لدولة السلطنة الأتراك

رأى رومانوس الرابع - إمبراطور الدولة البيزنطية - أن الدولة السلجوقية تهدد أمن بلاده، فعمل علي إضعافها، وأوقف خطتها التوسعية علي حساب أراضيها، فغادر رومانوس القسطنطينية علي رأس جيش يتكون من مائتي ألف مقاتل من الروم والفرنجة والروس والكرج والصرب والقوقاز وغيرهم من شعوب دولته، فجاءوا في تجمّل كثيرٍ وزيٍ عظيمٍ، وسار إمبراطور الروم علي رأس جيشه إلي ملازكرد - من أعمال خلاط - ولما علّم ألب أرسلان بذلك أعد جيشاً قوياً، وسار مسرعاً للقاء العدو، وقال وهو يُجدُّ في السير: «إنني أقاتل محتسباً صابراً، فإن سلمت فنعمة من الله تعالي، وإن كانت الشهادة فإن ابني ملكشاه ولي عهدي». وواصل المسير بجيشه حتي اقترب من الجيش البيزنطي، ولما لاحظ السلطان ألب أرسلان أن قوة الروم تفوق قوته واستعداداته، دعا الإمبراطور إلي عقد هدنة حتي يستطيع إعادة تنظيم قواته وتقويتها، لكن الإمبراطور رفض الهدنة، وقال: لا هدنة إلا في الري، لذلك رأى السلطان السلجوقي أن الحرب أمرٌ لا مفر منه، وأثار حماس جنده، ووقعت الواقعة بين الفريقين في ٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م، وكانت معركة حامية الوطيس، انتهت بانتصار المسلمين علي أعدائهم، ومزقوهم شر ممزق، فقتلوا فيهم كيف شاءوا، حتي امتلأت أرض المعركة بجثث قتلي الروم، ووقع الإمبراطور البيزنطي أسيراً في أيدي السلاجقة^(١)، وسيق إلي معسكر السلطان السلجوقي ألب أرسلان. فقال له السلطان: ما عزمت أن تفعل بي إن أسرتني؟ فقال: أفعل القبيح. فقال له السلطان: فما تظن أني أفعل بك؟ قال: إما ان تقتلني، وإما أن تشهري في بلاد الإسلام، والأخرى بعيدة وهي العفو وقبول الأموال، واصطناعي نائباً عنك. قال السلطان السلجوقي: ما عزمت علي غير هذا. أطلق السلطان ألب أرسلان سراح الإمبراطور البيزنطي بعد أن تعهد بدفع دية كبيرة قدرها ألف ألف دينار وخمسمائة ألف دينار، وأن يرسل إليه عسكر الروم في أي وقت يطلبه، وأن يطلق كل أسير مسلم في أرض الروم. وعقدت معاهدة مدتها خمسون عاماً بين الفريقين، وأفرج عن رومانوس، وعاد إلي بلاده مذموماً مدحوراً.

وكان لموقعة ملازكرد أهمية كبيرة في التاريخ الإسلامي بصفة خاصة، وتاريخ العالم بصفة عامة، فقد نجم عن هذه الواقعة تأسيس دولة سلجوقية في أرض

(١) حسين أمين: تاريخ العراق في العصر السلجوقي، ص ١٦٦ .

الروم في لآسيا الصغرى، وقد أدى ضياع هذه البلاد من الدولة البيزنطية إلى ضعفها وتدهورها حتى سقطت في النهاية على أيدي السلطان العثماني محمد الفاتح.

كما كان لهذه الواقعة آثاراً حضاريةً بالغة الأهمية، ذلك أن الثقافة المسيحية غلبت على سكان آسيا الصغرى، وامتدت منها إلى حدود أذربيجان، فلما انسحب الروم من هذه البلاد، ودخلت في حوزة السلاجقة، حلت الثقافة الإسلامية محل الثقافة المسيحية، وانتشر الإسلام في هذه البلاد، وانتشرت اللغتان العربية والفارسية فيها، لأن العربية لغة القرآن، والفارسية لغة الفاتحين، وقد مهد انتشارها لظهور اللغة التركية الحديثة بعد ذلك.

وضعت الدولة البيزنطية على إثر هذه الموقعة، ولم يعد لها دورٌ في حماية المسيحية من ضغط الإسلام، وفي حراسة الباب الشرقي لأوروبا من غزو الآسيويين، وبذلك لم يعد الغرب الأوربي يعتمد على البيزنطيين في هذا الدور، إنما كان عليه أن يعتمد على قوته وحدها، وعلى ذلك مهدت موقعة ملازكرد للحملة الصليبية المعروفة بالأولي بعد أن أصبحت المسيحية في خطرٍ بسبب إزدياد قوة السلاجقة وضعف الدولة البيزنطية.

ومهما يكن من أمرٍ فقد أعاد السلطان ألب أرسلان غريمه وأسيره الإمبراطور البيزنطي رومانوس الرابع إلى بلاده، بل خلع عليه خلعاً جليلاً، وخصص له سرادقاً كبيراً، وأعطاه قدراً كبيراً من المال لينفق منه في سفره، ثم أفرج عن عددٍ من ضباطه ليقوموا بخدمته، وأمر عدداً من رجاله بصحبته حتى يصل إلى دياره سالماً، ولم تكد تصل أخبار هذه الهزيمة إلى القسطنطينية حتى أزال رعاياه اسمه من سجلات الملك، وقالوا: إنه سقط من عداد الملوك، وغضب عليه المسيح، وأعلن ميخائيل السابع إمبراطوراً، وألقي القبض على رومانوس الرابع، وسُلِّمَت عيناه.

على أن السلطان ألب أرسلان لم يستغل هذا النصر العظيم في محاولة الإستيلاء على بقية آسيا الصغرى التي أصبحت ممهدةً له بعد ملازكرد، وإنما اكتفى بإدخال أرمينية وأنطاكية والرها في حوزته، واتجه إلى الأطراف الشرقية من دولته لإخضاع بلاد ما وراء النهر، وهاجم ألب أرسلان إحدى القلاع الثائرة، وأحمد ثورتها، وقبض جُنْدُه على قائدها يوسف الخوارزمي، وقد اعتزم السلطان

السلجوقي قتله بنفسه؛ لأنه أظهر عناداً وإصراراً علي التمرد، وتسبب في قتل الكثير من جنده، ورماه السلطان بسهم فأخطأه، ولم يكن يخطئ سهمه، وأخرج يوسف سهماً أخفاه في ملبسه، فلقى السلطان مصرعه بسببه. وبذلك انتهى حكم السلطان ألب أرسلان الذي استمر تسع سنين وستة أشهر، وقد حكّم مملكةً تمتد من نهر جيحون حتى نهر دجلة، ويُعدّ عهده من أهم عهود السلاطين السلاجقة، فقد استتب فيه الأمن وحسنت إدارة الدولة، واتسعت رقعتها، وقهر أعداؤها حتى أنها كانت مهابة مرهوبة الجانب، ويذكر ابن الأثير أن ألب أرسلان كان يُكثر من الصدقات علي المحتاجين من رعيته، وقد قنع من الأهالي بالضريبة الشرعية تؤخذ منهم كل سنة دفعتين، وقد اهتم بدراسة أخبار الملوك الماضين، وكانت سياساتهم عبرةً وعظةً له.

ملكشاه (٤٦٥-٤٨٥هـ / ١٠٧٢-١٠٩٢م) :

واجه ملكشاه صعاباً كثيرة في بداية حكمه، بسبب انتفاض بعض الولايات ومحاولة الانفصال عن الدولة السلجوقية، لكن ملكشاه أحبط كل المحاولات الانفصالية، ولم يكد ملكشاه ينتهي من دحض هذه الثورات، حتى واجه حركة أخرى قام بها عمه قاروت بك مطالباً بالسلطنة، وكان بكرمان وقت وفاة أخيه ألب أرسلان، وسار طالباً الري - حاضرة السلطنة السلجوقية -

فعمل ملكشاه على دحض هذه الحركة الخطيرة، فأصطحب وزيره نظام الملك، وتوجها إلي همذان للقاء قاروت بك، وقمع حركة تمرده، وكان الجند يميلون إلي قاروت بك، ودرات معركةً رهيبَةً بين الفريقين، انضم فيها شرف الدولة مسلم بن قريش، وبهاء الدولة منصور بن ديبس بن مزيد ومن معهما من العرب والأكراد إلي السلطان السلجوقي، وانتهت المعركة بهزيمة قاروت بك، وصفت السلطنة لملكشاه، ولم يعد ينازعه فيها منازع، ودانت له الولايات السلجوقية بالولاء والطاعة، أما قاروت بك فقد سيق أسيراً إلي السلطان ملكشاه، فأمر بقتله تخلصاً من شره وعقابه له علي موقفه العدائي نحوه، وأقر كرمان بيد أولاده، ومنح العرب والأكراد - الذين اشتركوا معه في المعركة - الإقطاعات الكثيرة.



شكل (٤٧) معركة ملاذكرد

غير أن الدولة السلجوقية تعرضت لأحداثٍ شغبٍ من الجند، إذ انطلقوا في البلاد يعثون فيها نهباً وفساداً، ويخربون ويدمرون، ففوض السلطان ملكشاه وزيره نظام الملك إليك، فأنت الوالد، وزاد في إقطاعه، وخلع عليه، ولقبه عدة ألقاب من بينها لقب أتابك أي الأمير الوالد، وكان ملكشاه جديراً بهذه الثقة، فأعاد إلي البلاد الأمن والطمأنينة^(١).

كانت بلاد ما وراء النهر كثيرة القلاقل والاضطرابات في عهد السلطان ألب أرسلان، فلما شق خاقان ألتكين - صاحب سمرقند - عصا الطاعة، وأغار علي ترمذ، وضمها إلي حوزته، منتهزاً فرصة الاضطرابات التي أعقبت ذلك، وانشغال السلطان الجديد ملكشاه في القضاء علي الصعاب التي واجهته، ولما استوثق الأمر للسلطان الجديد، سار إلي ترمذ وحاصرها وشدد عليها الحصار، ولما رأى جند ترمذ أن لا طاقة لهم بجند السلاجقة، طلبوا من السلطان العفو والصفح، فأمنهم وعفا عنهم، واستعادها ملكشاه، ثم صار إلي سمرقند، فأسقط في يد صاحبها، فغادرها وأرسل يطلب من السلطان الصلح، وتضرع في ذلك إلي نظام الملك، وأجيب إلي طلبه، وعقد ملكشاه معه صلحاً، وأقره علي سمرقند.

واصل ملكشاه سياسة أبيه ألب أرسلان في العمل علي توسيع رقعة الدولة السلجوقية بحيث تسيطر علي العالم الإسلامي كله، بما في ذلك الدولة الفاطمية المتداعية، فأرسل جيشاً إلي بلاد الشام سنة ٤٦٨ هـ / ١٠٧٥ م، واستولى علي أكثرها، ثم أرسل جيشاً إلي مصر، وأوغل في الأراضي المصرية، لكن الفاطميين بذلوا قصارى جهدهم في درء الخطر السلجوقي عن مصر، وفعلاً هزموا السلاجقة وطردوهم من البلاد المصرية، لذلك توقف السلاجقة بعد ذلك عن فكرة غزو مصر^(٢).

تطلع ملكشاه إلي تأكيد سيطرته علي بلاد الشام، فأقطعها لأخيه تاج الدولة تتش في سنة ٤٧٠ هـ / ١٠٧٧ م وما يفتحها في تلك النواحي، فقصده تتش حلب وحاصرها، ولحق بأهلها مجاعةً شديدةً بسبب الحصار، علي أن تتش اضطر إلي رفع الحصار بعد أن تعرضت القوات السلجوقية في دمشق لهجمات القوات الفاطمية، وسار تتش إلي دمشق لنجدته، واستطاع مطاردة الجند الفاطمي، واستعاد السيطرة السلجوقية

(١) مصطفى جواد: العصر العباسي، ص ٧٠.

(٢) ابن الطقطقي: الفخرى في الآداب السلطانية، ص ٢٦٠، ٣٢٢.

عليها، ولما رحل تاج الدولة تتش عن حلب، وخشي أهلها أن يعود إلي مهاجمتهم، استجدوا بشرف الدولة مسلم العقيلي- صاحب الموصل - ليسلموها إليه، ودخل الأمير العقيلي حلب سنة ٤٧٣هـ / ١٠٨٠م، وأخضع المعارضين لحكمه، وأرسل إلي السلطان السلجوقي يطلب إقراره على حلب، فوافق علي طلبه، وأقطعها له، وبذلك انضمت معظم سورية إلي الدولة السلجوقية، واتخذ تتش دمشق مقراً لدولة سلاجقة الشام.



شكل (٤٨) ملكشاه

حَرَصَ السلطان ملكشاه على توطيد نفوذ السلاجقة في آسيا الصغرى، وهو بذلك يواصل سياسة أبيه التي تدعو إلى مواجهة الدولة البيزنطية، وانتزاع أراضيها جهاداً في سبيل الله، ففي سنة ٤٧٠ هـ / ١٠٧٧ م أسند إلي سليمان بن قتلмыш بن إسرائيل حكم هذه البلاد، ويعتبر قتلмыш المؤسس الحقيقي لدولة سلاجقة الروم في آسيا الصغرى التي ظلت تحكم هذه البلاد حتى سنة ٧٠٠ هـ / ١٣٠٠ م.

لم يكتف قتلмыш بحكم بلاد آسيا الصغرى، بل سعى إلى توسيع رقعة ولايته واتجه إلى أنطاكية - وكانت بيد الروم - وساعده على ذلك إستياء أهلها من الحكم البيزنطي، وأرسلوا قتلмыш سراً، وطلبوا منه التوجه إلي بلدهم وامتلاكها، فأبحر علي رأس حملة كبيرة إلى أنطاكية، وأوغل جنده في جبالٍ وعرةٍ ومضائق غلقة حتى وصل إليها، وهاجم أنطاكية، وشدد هجماته عليها حتى فتحها، وغنم مغنم كثيرة، واستولي على البلدة، وأحسن إلي الرعية، وعدل فيهم، وأعاد تعمير أنطاكية، وبفتح السلاجقة لأنطاكية، أطلت دولتهم على البحر المتوسط.

على أن إتساع رقعة الولاية السلجوقية في آسيا الصغرى ومجاورتها لولاية الشام السلجوقية، أدي إلى ظهور نزاعٍ مريرٍ بين حكام هاتين الولايتين، ذلك أن قتلмыш لم يكتف بحكم أنطاكية، بل تطلع إلى السيطرة على حلب، فهاجمها ودارت حربٌ بينه وبين أميرها شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي، انتهت بمقتل الأمير العربي، وسيطرة قتلмыш على حلب أدى إلى وقوع صدامٍ بينه وبين تتش - الذي كانت حلب تابعة لولايته - ورأى ضرورة استعادتها، واشتبك الأميران في معركةٍ انتهت بهزيمة قتلмыш ومقتله، وحاصر تتش حلب، وأحبط مقاومة جند سلاجقة الروم، واسترد حلب^(١).

رأى ملكشاه أن يقصد سورية لإعادة الهدوء والطمأنينة إلي حلب، وأخضع في طريقه القلاع الخارجة على سلطان الدولة، ومن بينها الرها، فحاصرها واستعادها من الروم، ثم استرد جعبر، وكان أصحابها يقطعون الطريق، ثم عبّر بالقوات إلي مدينة حلب، وأقطعها لتقسيم الدولة آقسنقر، فعمرها وأحسن السيرة في أهلها، ورأى بقية حكام المدن الشامية أن أمن بلادهم لا يتحقق ولا ينجو من الخطر إلا إذا انضموا إلي الدولة السلجوقية القوية، فأرسل أصحاب شيزر واللاذقية وكفر طاب وقامية وغيرهم إلي ملكشاه يقدمون له فروض الولاء والطاعة، فأقرهم علي ما بأيديهم من البلاد، كما أقرَّ حكم تتش في بلاد الشام، وعاد السلطان السلجوقي إلي بغداد بعد أن أخضع لسلطانه بلاد الشام والجزيرة، وخلَعَ عليه الخليفة

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٤٠٥-٤٠٦.

العباسي الخلع السلطانية، وفوض إليه أمر البلاد والعباد، وأمره بالعدل فيهم، وأقام السلطان السلجوقي بعض الوقت في بغداد، وتزوج تركان خاتون ابنة الخليفة العباسي سنة ٤٨٠ هـ / ١٠٨٧ م.

عادت بلاد ما وراء النهر من جديد إلي إثارة المتاعب في وجه السلطان ملكشاه، ذلك أن أحمد خان بن خضر - صاحب سمرقند - استبد بالأهلين، فكتبوا إلي السلطان سراً يستغيثون به، ويسألونه القدوم عليهم لينقذهم من الظلم والجور، ويستعيد نفوذه في هذه البلاد، فغادر ملكشاه أصفهان إلى خراسان، ومنها إلي بلاد ما وراء النهر، وقصد بخاري وامتلكها، كما امتلك ما جاورها من البلاد، ثم قصد سمرقند وحاصرها وشدد عليها الحصار حتى فتحها وعفا عن صاحبها، وعهد إلى أحد قواده بحكم سمرقند، ثم قصد كاشغر، وأرسل إلي ملكها يطلب منه الدخول في طاعته، فوافق الملك وحضر بين يديه معلناً ولاءه له، فأكرمه وأقره على كاشغر، وبذلك امتد نفوذ السلاجقة شرقاً وغرباً، وشمل المناطق الواقعة بين كاشغر في الشرق وأنطاكية في الغرب، أي امتد من حدود الهند شرقاً إلي البحر المتوسط غرباً، وانطوى تحت لواء السلاجقة إقليم ما وراء النهر وإيران وآسيا الصغرى والعراق والشام.

بلغت الدولة أوج اتساعها وعظمتها في عهد السلطان ملكشاه، ومما لا شك فيه أن الفضل الكبير في ذلك يرجع إلي وزيره نظام الملك الذي عُرف عنه الحكمة والرشاد، وقد بلغ نظام الملك من علو الهمة، وبُعد الصيت ما بلغه البرامكة، وحلت به نكبة أشبه بنكبتهم، وكان نظام الملك من أبناء الدهاقين بطوس، زال ما كان لأبيه من مال ومُلْك، وتعلم العربية، وعلوم الدين، ثم تدرج في سلك الوظائف، وظهرت كفاءته وأمانته، حتي اتخذهُ ألب أرسلان وزيراً له، ثم فوضه ملكشاه أمر دولته كلها، وطوال تلك الفترة كان المحرك الحقيقي لسياسة الدولة، وضبط الأمور في هذه الدولة المترامية الأطراف، وأسفرت جهوده إلي جعل الدولة السلجوقية أكبر قوة في الشرق، ترهبها الأمم المجاورة، وتخشي بأسها.

ولم تستمر العلاقات الودية بين ملكشاه ووزيره نظام الملك، فدوام الحال من المحال، إذ ساءت هذه العلاقات لعدة عوامل منها ما يتعلق بولاية العهد، فقد رأى نظام الملك أن بركياروق - الابن الأكبر للسلطان ملكشاه - أحق بولاية العهد من أخيه محمود، ورفضت تركان خاتون - زوج السلطان ووالدة محمود - ذلك، ورشحت ابنها محموداً لولاية العهد، وكان في الرابعة من عمره وأدي ذلك

إلى خلافاتٍ شديدةٍ بين نظام الملك وتركبان خاتون، ولما كانت قوية التأثير على زوجها ملكشاه، فقد أفلحت في إثارة الخلافات بين الرجلين^(١). وكان نظام الملك يعهد بحكم ولايات الدولة السلجوقية إلى أبنائه وأحفاده وأقاربه، ويسند اليهم المناصب الرئيسية، وكان بعضهم غاشماً سيئ السيرة، ظالماً في الناس، فنال ذلك من سمعة الوزير السلجوقي، وكان أحد أحفاده يلي مرو فأساء إدارتها، واستبد بأهلها، فرفع الناس شكاياتهم إلى السلطان، فأرسل إلى نظام الملك يؤنبه، ويقبح تصرفه في تعيين هذا الشاب الطائش أو أقاربه عموماً ممن تنقصهم الخبرة وتعوزهم التجربة، واستاء الوزير- الذي تجاوز الثمانين عاماً - من رسالة السلطان السلجوقي الذي هو مدين له بما بلغته الدولة في عهده من قوة وإزدهار، وعبر عن غضبه برسالة بعث بها إلى السلطان جاء فيها: «إن الذي وضع التاج على رأسك قد وضع القلنسوة على رأسي». ونتيجة لهذه الخلافات الشديدة أمر السلطان بعزل وزيره.

على أن نظام الملك لم يلبث أن قُتل بعد عزله في رمضان سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م بالقرب من نهاوند، فقد اغتاله شاب ديلمي، وهو داخل إلى مخيمه من طائفة الاسماعيلية حين أرخي الليل سدوله، ذلك أن نظام الملك كان شديد العداء والتكيل بهذه الطائفة، ولم يلبث ملكشاه أن توفي بعد مقتل وزيره بشهر واحد^(٢).

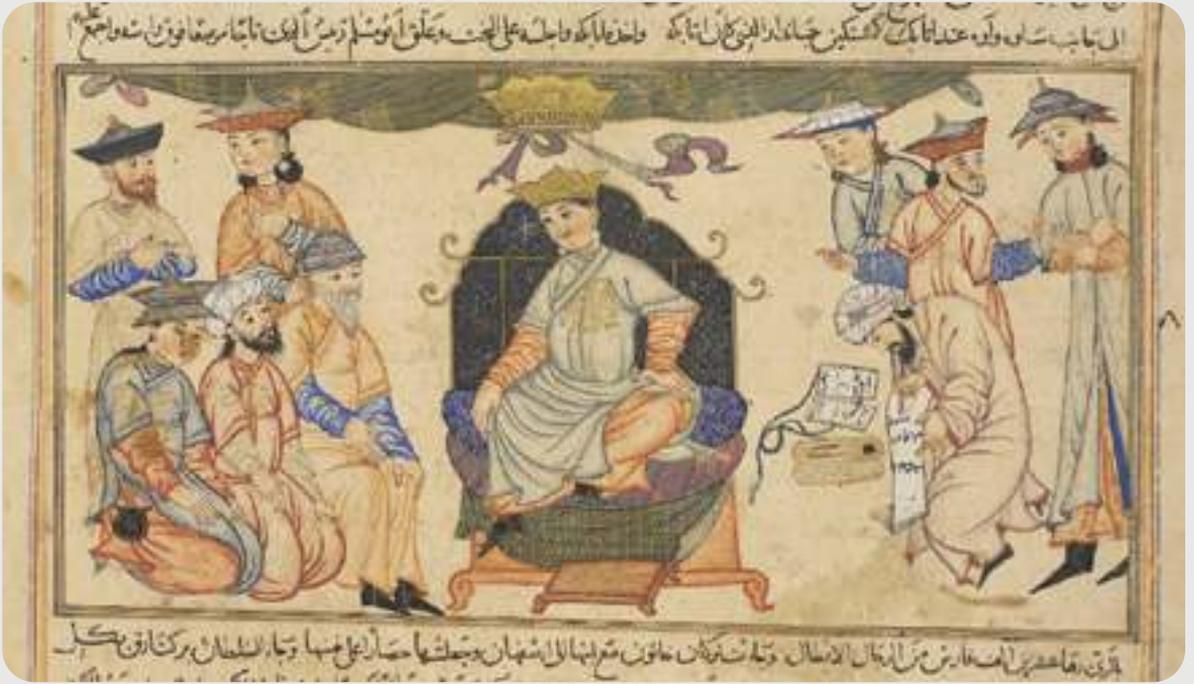
الصراع داخل البيت السلجوقي:

أخذت الدولة السلجوقية في الضعف والانهيار بعد وفاة السلطان ملكشاه، ومن أهم أسباب هذا الضعف تنافس الأمراء السلاجقة حول الوصول إلى عرش السلطنة، الأمر الذي أحدث انقساماً شديداً بين أبناء البيت السلجوقي، وبدأت هذه الخلافات بعد وفاة السلطان ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م، بين بركياروق الابن الأكبر لملكشاه- وأخيه محمود، وأيد بركياروق نظام الملك ومن بعده أتباعه وأفراد أسرته وأساتذة وطلاب المدرسة النظامية، علي حين وقف إلى جانب محمود أمه تركبان خاتون، والوزير تاج الملك الشيرازي- الذي خلف نظام الملك- وقد استطاعت تركبان خاتون أن تحصل من الخليفة العباسي المقتدي بالله على تقليد له بالسلطة، منتهزةً فرصة وجودها في بغداد أثناء موت ملكشاه، وأودع أنصارها بركياروق في سجن أصفهان، غير أن أتباع المدرسة النظامية أخرجوه من السجن، ونادوا

(١) ابن الأثير: الكامل، ج ١٢، ص ٤٤٠؛ ابن السباعي: مختصر أخبار الخلفاء، ص ١٠٩.

(٢) فاروق عمر: الخلافة العباسية في العصور المتأخرة، ص ٨٥، ٩٢١.

به سلطاناً، وقتلوا الوزير تاج الملك الشيرازي لاتهامه بتدبير إغتيال نظام الملك، وأسندوا الوزارة إلي عز الملك الحسين بن نظام الملك. على أن الأمور لم تستتب لبركياروق، فقد طالب عمه تتش- صاحب الشام- بالعرش، واستولى علي بلاد الجزيرة، وسار إلي أذربيجان، على أن بركياروق أوقع به الهزيمة، واعترف الخليفة العباسي به سلطاناً.



شكل (٤٩) بركياروق بن ملكشاه



لم يستسلم تتش للهزيمة، بل عاود محاربة ابن أخيه، وأعد العدة لذلك، لكنه لم يستطع التصدي لبركياروق الذي قوي بأسه، وعظم شأنه بعد وفاة أخيه محمود، وانتصر علي تتش بالقرب من الري سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م، وبذلك قضى بركياروق علي كل المحاولات التي استهدفت انتزاع السلطنة منه، ودانت له الدولة بالطاعة والولاء.

عاد الانقسام إلى البيت السلجوقي، بعد أن ثار محمد - أخو السلطان - عليه، وكان والياً علي أران وكنجه، وقصد همذان، علي أن بركياروق لم يستطع التصدي له وإحباط تمرده بسبب ثورة الجند عليه، فقوي شأن محمد، وأعلن نفسه في همذان سلطاناً، ولم يلبث أن اعترف به الخليفة العباسي لما شَعَرَ بقوة بأسه ورجحان كفته، وبذلك أصبح في الدولة السلجوقية سلطانان.

استمر النزاع بين الإخوة بروكياروق ومحمد وسنجر، وتكررت الحروب بينهم، وكان الخليفة العباسي يقف من هذه الحروب موقف المتفرج، ينتظر نتيجة المعركة، ويقوم الخطبة لمن غلب، ودخل بغداد ظافراً منتصراً وقد ازداد ضعف الدولة السلجوقية بسبب هذا الانقسام الشديد بين أمراء البيت الحاكم، وفي سنة ٤٩٧ هـ / ١١٠٣ م إتفق بركياروق ومحمد وسنجر علي تقسيم المملكة بينهم، وتوفي بركياروق سنة ٤٩٨ هـ / ١١٠٤ م، بعد أن ترك الدولة السلجوقية وقد مزقتها الإنقسامات، وسيطر كل أمير علي ما تحت يده من البلاد^(١).

ولم يستطع السلطان محمد - الذي انفرد بالسلطنة بعد وفاة أخيه - أن يعيدَ إلى الدولة وحدتها في وقتٍ اشتد فيه خطر الإسماعيلية، وبدأت الحروب الصليبية بوفاته سنة ٥١١ هـ / ١١١٧ م، واشتد النزاع وعاد من جديد حول العرش، ذلك أن محمود - الذي خَلَفَ أباه - لم يعترف به عمه سنجر - صاحب خراسان وما وراء النهر - بل أعلن نفسه سلطاناً، وبذلك أصبح للدولة - كما كان الحال من قبل - سلطانان.

علي أن أمر سنجر لم يستقر في بلاد ما وراء النهر وخراسان، ذلك أن الخوارزميين أقاموا ملكهم علي حساب دولته، واشتبكوا مع سنجر في عدة حروب أنهكت قواه، ومن ناحيةٍ أخرى تكرر النزاع بين الأمراء السلاجقة، وتطلع كل منهم إلي

(١) البنداري: تاريخ دولة آل سلجوق، ص ٢٢٩، ٢٣٣..

الوصول إلي السلطنة، الأمر الذي أدى إلى وقوع اشتباكاتٍ بينهم، وهكذا أصبحت الدولة السلجوقية منذ أواخر القرن الخامس الهجري مسرحاً للحروب الداخلية، في الوقت الذي أحرق بها الأعداء من كل جانب^(١).

كما ازداد نفوذ الخوارزميين في المشرق الإسلامي في عهد السلطان تتش، وقربَه الخليفة العباسي الناصر لدين الله، وعهد إليه بتخليصه من كابوس السلاجقة الذي قاسي منه العباسيون سنين عدداً، وقد لقيت هذه الدعوة إستجابةً من السلطان الخوارزمي، إذ تهيأت له الفرصة لمد نفوذه غرباً، وتقوية صلته بدولة الخلافة والسيطرة عليها بدلاً من السلاجقة، وبذلك يكتسب الخوارزميون مركزاً سياسياً مرموقاً في عالم الإسلام، ومهما يكن من أمرٍ فقد سار تتش إلي الري سنة ٥٩٠هـ / ١١٩٣م، واشتبك مع طغرل - آخر السلاطين السلاجقة -، وانتصر عليه، وخر السلطان السلجوقي صريعاً، في ميدان القتال؛ وأرسل تتش رأسه إلي بغداد، وسيطر الخوارزميون علي أملاك السلاجقة في المشرق، وبذلك زالت الدولة السلجوقية.



شكل (٥٠) اشتباك تتش مع طغرل آخر ملوك السلاجقة

(١) الفاروق عمر: الحركة الشعبية، بغداد، ١٩٨٦م، ص ١٣٤.



تدريبات الفصل الرابع



حدد صواب أو خطأ العبارة التالية:

(١) كان ألبتكين من الموالي الأتراك الذين لهم منزلة كبيرة عند السامانيين:

○ صواب

○ خطأ

(٢) استطاع مودود الغزنوي هزيمة الأمير ألب أرسلان بن داود السلجوقي:

○ صواب

○ خطأ

(٣) الخليفة المستكفي هو آخر خلفاء عصر نفوذ الأتراك:

○ صواب

○ خطأ

اختر الإجابة الصحيحة مما يلي:

(٤) حارب أخيه وانتصر عليه ثم أنهى الدولة السامانية:

○ مودود بن مسعود

○ محمود الغزنوي

○ مسعود الأول

(٥) ذهب أحمد بن طولون إلى مصر نائباً عن واليها في عهد:

○ الخليفة المعتز

○ المهدي بالله

○ محمد المنتصر

(٦) انتهت فترة «صحوة الخلافة» بوفاة الخليفة:

○ المعتضد

○ المعتمد على الله

○ المهدي بالله





« »

الفصل الخامس

الغزو المغولي وسقوط الخلافة العباسية

» «



الفصل الخامس

الغزو المغولي وسقوط الدولة العباسية

الأهداف:

عزيزي الطالب .. بعد الإنتهاء من دراسة هذا الفصل ينبغي عليك أن تكون قادراً على أن:

- (١) تشرح أثر الغزو المغولي على سقوط الدولة العباسية.
- (٢) توضح جهود المظفر قطز في قتال التتار.
- (٣) تشرح نتائج موقعة عين جالوت.

الغزو المغولي وسقوط الخلافة العباسية:

المغولُ شَعْبٌ من الجنس الأصفر، كانوا يسكنون في الجهات الشمالية من بلاد الصين حول بحيرة بيسكال، وتعرف تلك المناطق باسم منغوليا، التي تمتد من أواسط آسيا جنوبى سيبيريا، وشمال التبت وغربى منشوريا، وشرقى التركستان بين جبال التاي غرباً، وجبال جنجان شرقاً.

كان المغول قبائل رُحَّل يعيشون على تربية الخيل والماشية، فهم ينتقلون من مكان إلى آخر طلباً للعُشْبِ والماء، وقد فرضت عليهم البيئة الصحراوية عادات وتقاليد ترتبط بها، فهم في حالة دائمة يبحثون عن المراعى، وفي حالة غزو دائم، وهم من الناحية الاقتصادية رعاة، وغزاة من الناحية السياسية، ومقاتلين من الناحية التاريخية، فحاجة المغول إلى المراعى والمحافظة عليها، احتاجت منهم إلى قيام نظام حربي ثابت يقوم على ما يمارسه الرعاة من التدريب المستمر مع ركوب الخيل من أجل القتال والغزو، وأوجدت فيهم قوة الاحتمال والصبر على التعب، فجعلت من المغول جندياً بارعاً قادراً على المبادرة على الهجوم، فخطتهم الحربية تقوم على الهجوم المفاجئ والارتداد السريع (١)، وهم بذلك يسعون إلى الفائدة السريعة التي لا تحتاج إلى جهد وعناء، مما جعلهم يدمرون المظاهر الحضارية، فقاموا بهدم المباني، وإحراق الكتب وقتل العلماء والمفكرين.

(١) الباز العرينى: المغول، ص ١٢، ١٣.

ظهر المغول كدولة في القرن الثاني عشر الميلادي، وكانت عاصمتهم قره قورم، ويقوم النظام عند المغول على الخضوع التام والطاعة العمياء للخان الأعظم، والعقوبة الشديدة للمخالفين^(١).

وكان المغول إذا ما اقتحموا مدينةً أو بلدةً بالقوة، يقتلون أهلها دون تفرقة، وكان من عاداتهم أن يجمعوا كتائب من الأسرى يضعونهم في مقدمة الصفوف، ثم تبقى القوات المغولية خلفهم، فيقوم الأسرى بالأعمال الحربية العنيفة، فيتعرضون للقتل دون أن يجدوا طريقاً للفرار، فإذا ما أنهك الأسرى جيش الأعداء، تقدم المغول بعد ذلك، فينقضون على عدوهم، ويقضون عليه ببساطة^(٢).

ويعتبر جنكيز خان مؤسس الإمبراطورية المغولية (٥٥٠-٦٢٤هـ / ١١٥٠-١٢٢٧م) فقد استطاع أن يوحد قبائل المغول والتتار في إمبراطورية واحدة، جعل قاعدتها وعاصمتها قره قورم^(٣)، وامتدت سياسته العدوانية التوسعية نحو الجنوب ثم نحو الغرب فاصطدم بالقوى الإسلامية ومن بينها الدولة الخوارزمية، فقاتلها عام ١٢٢٠م، ولقيت تلك البلاد من الفظائع والجرائم وألوان الدمار والخراب الشيء الكثير.



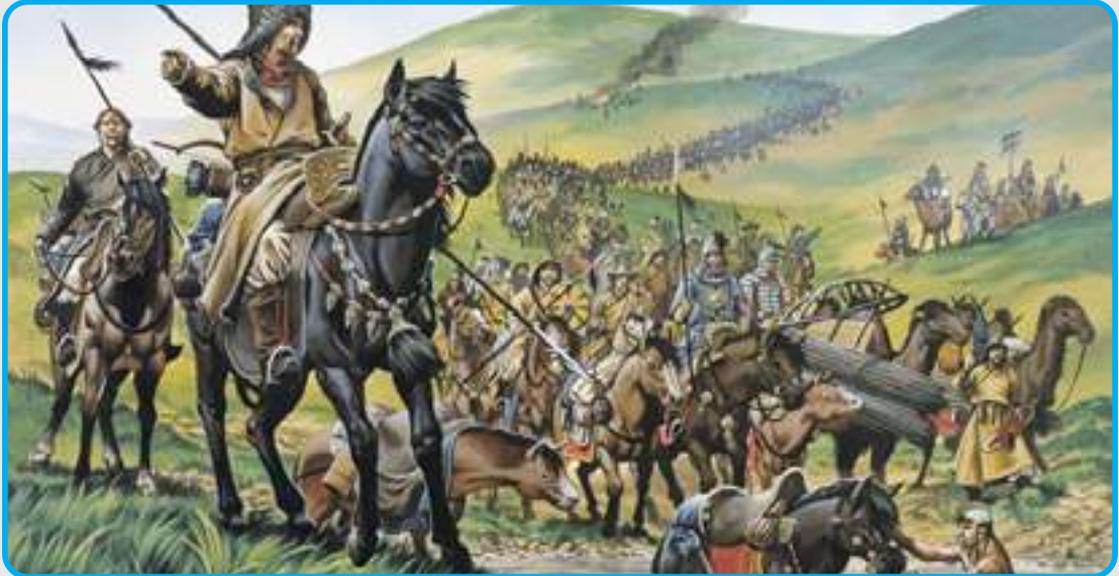
فيديو (١) ظهور المغول

(١) إبراهيم العدوي: التاريخ الإسلامي، ص ٣٨١.

(٢) فايد عاشور: العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص ٣٤، ٣٥.

(٣) القلقشندی: صبح الأعشى، ج ٤، ص ٣١٠، ٣١٢.

توفى جنكيز خان عام ٦٢٤هـ / ١٢٢٧م بعد أن حكم خمساً وعشرين سنة، بعد أن ترك لأولاده الأربعة إمبراطورية واسعة وأوصاهم بالوحدة والاتفاق. وفي عام ١٢٥١م آلت زعامة المغول إلى هولاكو الذي قام بالزحف إلى همدان، فقتل على طائفة الإسماعيلية فيها، واستسلمت له قلعة الموت في كانون أول سنة ١٢٥٦م، وأراق كل ما يتعلق بعقائد الإسماعيلية^(١). وكان يتولى الخلافة العباسية في بغداد عند قدوم هولاكو المستعصم بالله (٦٤٠-٦٥٦هـ / ١٢٤٢-١٢٥٨م) وهو الخليفة السابع والثلاثون من الخلفاء العباسيين، الذي أحاط نفسه بكل مظاهر العظمة، وقد اشتدت العداوة في بلاطه بين وزيره الشيعي مؤيد الدين بن العلقمي، وكتابه السنّي مجاهد الدين أبيك الدوادار، الذي كان يلقي التأييد والمساندة من ولي العهد أبي بكر ابن الخليفة، وكانت بغداد حصينة جداً، وباستطاعة الخليفة حشد ما يزيد على مائة ألف مقاتل عند توفير الثقة في الأمراء والقادة، ونظراً لعدم الثقة أشار عليه الوزير العلقمي بتخفيض الجيش إلى الخمس.



شكل (٥١) المغول

(١) الباز العريني: المغول، ص ٢١١.

وساعد في سوء الأحوال عند اقتراب الكارثة، وقوع فتنٍ ومنازعاتٍ داخليةٍ بين عناصر أفراد المجتمع من أهل السُّنَّةِ والشَّيعةِ والمسيحيين واليهود، ولعل أبرزها اندلاع الفتنة بين السُّنَّةِ والشَّيعةِ، ووقوف ولى العهد ضد الشَّيعةِ، مما أدى إلى نهب الكرخ حيث يقطن الشيعة (٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م) (١).

أرسل هولاءكو إلى الخليفة العباسي المستعصم بالله كتاباً يعاتبه فيه على عدم تقديم الجند له أثناء محاربة الحشاشين، ثم طلب إليه:

١- أن يهدم الحصون، ويردم الخنادق، ويسلم البلاد لابنه.
٢- أن يحضر لمقابلته أو يرسل الوزير سليمان شاه، والدويدار يحملان رسالته.
وختم هولاءكو كتابه بالتهديد والوعيد: «إذا استمع الخليفة لهذا النصح تجنب حقه عليه، وإلا عرّض جيوشه للهزيمة أمام جيوش المغول التي قهرت جيوش خوارزم وإيران» (٢).

ردَّ الخليفة على تهديد هولاءكو بكتابٍ بعثه مع شرف الدين بن الجوزي، يدعوه فيه إلى الابتعاد عن الغرور، والعودة إلى بلاده منغوليا، ومما جاء في الرد: «قد جعلت نفسك فوق العالم أجمع، وظننت أن أوامرك هي أوامر القضاء، كيف تطلب مني طلباً لا تستطيع تنفيذه؟ أيخيل إليك أنك بذكائك وقوة جيشك، وشجاعتك ستأسر نجماً من النجوم؟». ثم أخذ الخليفة يبيِّن مكانة الخلافة: «إن ملايين من الفرسان والرجال على استعدادٍ للقتال، وهم رهن إشارتي، حتى إذا حلت ساعة الانتقام جففوا مياه البحر». ثم ختم كتابه: «فما بالك بخنادق رعيتي وحصونهم؟ فاسلك طريق الود وعد إلى خراسان، وإن كنت تريد الحرب، فلا تتوان لحظة، ولا تعتذر إذا عزمت، إن لى ألوفاً مؤلفة من الفرسان والرجالة على أتم استعداد لخوض غمار الحرب» (٣).

ولما استلم هولاءكو الرسالة أبدى امتعاضه، ورد على الخليفة: بأنه مصمم على الحرب، وأنه قادم، وأنه منتصرٌ لا محالة.

استشار الخليفة مستشاريه، فأشار عليه وزيره ابن العلقمي باسترضاء هولاءكو عن طريق تقديم الاعتذار ودفع إليه أثمان النفائس (٤)، وقد مال الخليفة للأخذ بهذا

(١) أبوالفدا: المختصر في أخبار البشر، ج ٣، ص ١٩٣.

(٢) رشيد الدين: جامع التواريخ، مجلد ٢، ج ١، ص ٢٦٨.

(٣) المصدر نفسه: ص ٢٦٩، ٢٧٠.

(٤) المصدر نفسه: ص ٢٧١.

الرأى، ولكن مجاهد الدين الداویدار الذى استمال بعض الأمراء إليه، وبعثوا إلى الخليفة برسالةٍ يقولون فيها إن رأى ابن العلقمى يُعَرِّضُ البلاد إلى الهلاك على أيدي الغول، وتعهّدوا له بأخذ الحيطة لدرء خطر المغول^(١).

وقد أدى تبادل المراسلات بين هولاءكو والخليفة المستعصم إلى اتساع الهوة وجعل الحروب حتمية بين الطرفين.

ولما تأكد هولاءكو أنه قد أصبح فى استطاعته الاستيلاء على بغداد، أقدم على غزو العراق، وتطبيق خطته الحربية التى تقضى بمحاصرة المدينة بجيوشه من جميع النواحي، فأرسل أحد قواده «باجو» لمهاجمة بغداد من الجهة الغربية، وسار هو على رأس فريقٍ من الجيش لمحاصرتها من الناحية الشرقية، وبصحبه كثير من أمراء المسلمين من أمثال أبى سعد زكى أتابك شيراز، وبدر الدين لؤلؤ أتابك الموصل، وسكرتيره الخاص عطا ملك الجوينى، ونصير الدين الطوسى الفلكى والحكيم المشهور^(٢).

أمر هولاءكو باجو بالإسراع بعبور نهر دجلة ومهاجمة بغداد من ناحية الغرب، وتمكنت قوات باجو من عبور النهر حيث دارت الحرب بين الفريقين، ولكن الهزيمة حلت بالجيش العباسى فى العاشر من المحرم سنة ٦٥٦هـ. واستولى باجو وجنده على الجانب الغربى من بغداد، ونزلوا فى أحياء المدينة على شاطئ نهر دجلة وسيطروا على جميع أجزائها.

استغل هولاءكو انشغال الجيش العباسى من الناحية الغربية، وهاجم المدينة من الجهة الشرقية بجيش بلغ مائتى ألف مقاتل^(٣)، بينما كان لا يزيد عسكر الخليفة على ثلاثين ألفا بقيادة مجاهد الدين أيبك، والتقى عسكر الخليفة مع عسكر المغول، فكانت الغلبة لعسكر الخليفة بادئ الأمر، ثم انقلبت الصورة بانتصار المغول، وقام المعسكر فى الرابع من شهر محرم من سنة ٦٥٦هـ حتى التاسع عشر من شهر محرم حيث شاهد الناس رايات المغول فى بغداد، حيث أقدم المغول على القتل والنهب والتمثيل العظيم ما يُعْظَم سماعه، فقرر الخليفة تسليم المدينة، فقام الخليفة بإرسال الكثير من الهدايا الثمينة مُعْلِئاً رضاه بالتسليم ووقف القتال، ولم

(١) رشيد الدين: جامع التواريخ، مجلد ٢، ج ١، ص ٢٦٨.

(٢) براون: تاريخ الأدب فى إيران، ج ٢، ص ٢٨٣؛ حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام، ج ٤، ص ١٥٧.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية، ج ٣، ص ٢٠٠.

تمض على ذلك بضعة أيام حتى خُدِعَ المغول، فقام الخليفة بملاقاة هولوكو وكان بصحبته أولاده الثلاثة وهم ولده الأكبر أبو العباس أحمد، وولده الأوسط أبو الفضائل عبدالرحمن، وولده الأصغر أبو المناقب مبارك، ولما مَثَلَ الخليفة بين يدي هولوكو، أحضر له هولوكو كثيراً من الجواهر والنفائس والسبائك الذهبية، ثم طلب هولوكو من الخليفة أن يأمر أهل بغداد بوضع سلاحهم والخروج من مدينتهم، فأنشد الخليفة رسولاً من قبَلِه ينادي الناس بأن يلقوا السلام ويخرجوا من الأسوار، غير أنهم لم يكادوا يُلَبُّون طلبه، حتى أمر هولوكو جنده فانقضوا عليهم وقتلوهم شر قتلة، وأخذ المغول يجردون القصور من التحف النادرة، واتفوا عدداً كبيراً من الكتب القيمة في مكباتها، وأهلكوا كثيراً من رجال العلم^(١).



فيديو (٢) غزو هولوكو للعراق

(١) بروان: تاريخ الأدب في إيران، ص ٥٨٦.



وأعمل المغول السيف في رقاب أهل بغداد أربعين يوماً، سلبوا فيها أموالهم، وأهلكوا كثيراً من رجال العلم، وقتلوا أئمة المساجد وحملة القرآن، وتعطلت المساجد والمدارس، وأصبحت بغداد قاعاً صفصفاً، ليس بها إلا فئة قليلة مشردة الأذهان، وكان القتلى في الطرقات كأنها التلال، وقدر السبكي القتلى بتسعمائة ألف^(١).

وانتهت هذه الحوادث المحزنة بقتل الخليفة وابنيه أبي العباس أحمد وأبي الفضائل عبدالرحمن، وأسّر ابنه الأصغر مبارك وأخوته الثلاث فاطمة وخديجة ومريم^(٢). وبسقوط بغداد زالت الدولة العباسية، وزالت معها الخلافة العباسية كذلك، فانتشرت الفوضى والاضطرابات في العراق وبلاد الشام، مما أدى إلى تدهور الشرق سياسياً وعلمياً وثقافياً.



شكل (٥٢) مهاجمة هولاكو لمدينة بغداد

(١) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى، ص ١١٥.

(٢) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ج ٤، ص ١٦١.

زحف هولاءكو من بغداد إلى الشام ماراً بالموصل وحران والرها، فأعمل السيف بالسكان، ثم توجه إلى حلب فاستولى عليها، ومنها توجه إلى دمشق التي سقطت بيده.

وكان يحكم مصر حينئذ علي بن المعز أيبك التركماني، وكان صغير السن، وكان الحاكم الفعلي سيف الدين قطز نائباً له، ولما كان قطز يريد الخروج للجهاد والدفاع عن بلاد الإسلام بقتال المغول، رأى قطز أن ذلك لا يتسنى له والأحوال في مصر على حالها حيث يحكم البلاد سلطان صغير، لا يستطيع القيام بواجب الجهاد ضد العدو، فجمع قطز الأمراء والأعيان واستشارهم بعزل الملك المنصور علي بن المعز أيبك، فوافقوا على ذلك، وبايعوه بالسلطة على البلاد.

وفي أوائل شهر كانون الثاني من عام ١٢٦٠م، وجّه هولاءكو سفراءه إلى مصر، تطلب إلى السلطان قطز تسليم مصر، وهددهم وتوعدهم إن هم خالفوه، فاجتمع قطز بالأمراء للتشاور، فقررُوا الجهاد ضد التتار بعد تردد عدد من الأمراء، فقال لهم قطز: «يا أمراء المسلمين، لكم زمان تأكلون أموال بيت المال، وأنتم للغزاة كارهون، وأنا متوجه، فمن اختار الجهاد يصحبنى، ومن لم يختار ذلك يرجع إلى بيته، فإن الله مطلع عليه، وخطيئة المسلمين في رقاب المتأخرين». ثم تكلم الأمراء المؤيدون، فلم يسع البقية المعارضة إلا الموافقة، وانفض الاجتماع، وكلّ مجمع على قتال التتار، ثم أحضر قطز رسل هولاءكو الأربعة وقطع رؤوسهم، وعلقها في أماكن متعددة في القاهرة.

وهكذا صمم الملك المظفر قطز على قتال العدو والخروج لمواجهته، فأصدر أوامره بجمع الجيش والاستعداد للخروج للجهاد في سبيل الله ونصرة دينه، وطالب الولاة «بازعاج الأجناد في الخروج للسفر، ومن وجدوا أنه قد اختفى يُضرب بالمقارع»، ولما استكمل قطز استعدادته ركب في الليل، وحرك كوساته^(١) «وقال: «أنا ألقى التتار بنفسى». فلما رأى الأمراء المعارضون والمترددون تصميم قطز وأتباعه، إنصاعوا له وساروا معه.

(١) القلقشندى: صبح الأعشى: ج ٤، ص ٤؛ الكوسات: هي صنوجات من نحاس تشبه الترس يدق أحدها بالآخر بإيقاع مخصوص، ومع ذلك طبول وهي تدق في أوقات خاصة.

وسار الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري بمقدمة الجيش للاستطلاع، وكشف أخبار العدو حتى وصل غزة، حيث التقى بمقدمة الجيش المغولي بقيادة بيدار، فلما رأى طليعة المسلمين، أرسل إلى كتبغا في بعلبك يخبره بتحركات المماليك ويطلب منه النجدة، حيث طلب منه كتبغا: «قف مكانك وانتظر». ولكن بيبرس لم يمهله، هاجمه وهزم التتار وطاردهم بيبرس حتى نهر العاصي، وقد كان لهذه المعركة أثرٌ كبيرٌ في الروح المعنوية للمسلمين، فقد ارتفعت الروح المعنوية، وكسرت حاجز الخوف عندهم، وأكّدت لهم أن النصر من عند الله، يمنحه لعباده المخلصين.

أما بالنسبة لهولاكو، فقد عاد إلى بلاده بسبب موت مونكا خان حتى يكون قريباً من الأحداث في بلاده، وترك قائده كتبغا مع قوة عسكرية حوالى ثلاثين ألف، وكان كتبغا قائدَ مقدمة جيش التتار، فلما عَلِمَ بما لحق بمقدمة جيشه في غزة من الهزيمة، جمع التتار الذين كانوا قد تفرقوا في بلاد الشام، وعزم على مهاجمة المسلمين، ولكنه عَرَضَ على الصليبيين في إمارة عكا أن يحالفوه على قتال المسلمين، ولكن قُطِرَ أن قد قطع عليه الطريق، فقد عرج عليهم أثناء مسيرته لقتال المغول على الصليبيين وهددهم، وَضَمِنَ حيادهم في المعركة بين التتار والمسلمين.



شكل (٥٣) عودة هولاكو إلى بلاده

موقعة عين جالوت : ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م

كانت مبادرة قُطز لقتال المغول ترجع إلى إيمانه وعزمه على الجهاد، لما سمعه من كثرة المناجات والفجائع في البلاد التي مروا بها، بعد أن قضوا على جميع الحرث والنسل، وأزهقوا الأرواح والأحياء، فهو لم يكن يهمله سوى الصلح أو الجلاء عن مصر أو القتال، أما الاحتمال الأول فهو سيؤدي إلى الذل والقتل فيما بعد، والاحتمال الثاني فإلى أين يتجه عن جلاء مصر، لذلك لم يجد أمامه سوى احتمال القتال والدفاع عن الإسلام والمسلمين.

تقدم المظفر قُطز متجهاً نحو يسان، فوقف بقوته في عين جالوت الواقعة غربى بيسان، حيث كان التتار، أمر السلطان قُطز جمع الأراء وقادة الجيش وحضهم على القتال ورغبهم فيه، وذكّرهم بما لحق ببلاد الإسلام من القتل والدمار والحريق، وألح في دعائه لهم بنصرة الإسلام والجهاد في سبيل الله وخوفهم من عقاب الله إن هم ولوا الأديبار أمام عدوهم، تأثر القادة والجنود «فضجوا بالبكاء، وتحالفوا على الاجتهاد في قتال التتار ودفعهم عن البلاد»^(١).

وفي صباح الخامس والعشرين من شهر رمضان ٦٥٨هـ / أوائل أيلول ١٢٦٠م تقدم بيبرس البندقداري بفرقة الكشافة لاستطلاع أخبار العدو ومناوشته، حتى يصل السلطان ببقية الجيش، وأخذ بيبرس يلتقى بطلان التتار، ويناوشهم حتى اصطدمت طليعة المسلمين مع طليعة التتار، واشتد القتال حتى انهزم العدو في اللقاء الأول، والتقى الجمعان، وكان الوادي قد امتلأ بالناس من سكان القرى والضياح، فكثر صياحهم ودعائهم بالنصر، ودقت طبول الحرب واشتد القتال، وتقاتلا قتالاً شديداً لم ير مثله حتى قتل من الطائفتين جماعة كثيرة^(٢)، واشتد القتال، فألقى قُطز خوذته عن رأسه إلى الأرض، وصرخ بأعلى صوته: «والسلاماه». فاشتدت عزائم المسلمين، وحملوا على العدو حملة صادقة، فاشتد القتال، مما حدا بكتبغا ليقاتل بنفسه، وكان بيبرس قد نصب كميناً للتتار في المنطقة، وعند لقاء العدو بطليعة المسلمين، انكرت هذه الطليعة وانسحبت فتشجع المغول وتعقبوا المسلمين وقتلوا بعضهم، وعندما وصلوا إلى الكمين الذي كان أعده بيبرس، فانقضت عليهم القوات الإسلامية من ثلاث جهات، استبسلت القوات الإسلامية في قتال العدو، وقتلوهم

(١) المقرئزي: السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٤٣٠.

(٢) أبوالمحسن: النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٧٩.

قتالاً مستميتاً من الفجر حتى منتصف النهار، ثم تعذرت المقاومة على جيش المغول ولحقت بهم الهزيمة آخر الأمر (١). وهكذا انهزم المغول شرَّ هزيمة، وولَّوا الأدبار، وقتل مقدمهم كتبغا بيد الأمير



شكل (٥٤) معركة عين جالوت

(١) رشيد الدين: جامع التواريخ، ج ١، ص ٣١٤.

جمال الدين أقوش الشمي، وانهزم التتار إلى الجبل المجاور بادئ الأمر، فتبعهم جنود المسلمين، فقتلوا معظمهم، وأسروا آخرون^(١).

وتابعت الفرق الإسلامية التتار المنهزمين حتى حمص، فألقوا متاعهم ومعداتهم، وتخطفهم المسلمون، وقتلوا خلقاً كثيراً، وأقبلت جموع العساكر الإسلامية، وقد امتلأت أيديهم بأسلاب وغنائم المغول، وتتبع الأمير فلول التتار حتى حدود الفرات^(٢).

ويعتبر هذا الانتصار انتصاراً للحضارة، وانقاذاً للمدينة من هولاء الهمج، الذين لو لم تدر عليهم الدائرة، لامتد ضررهم إلى العالم والإنسانية^(٣). وكان لهذا النصر أبلغ الأثر على المسلمين، ما حدا بالظاهر بيبرس عندما آلت إليه السلطة إقامة نصبٍ تذكاريٍّ تخليداً لذكرى انتصار المسلمين على التتار وسماه «مشهد النصر»^(٤).



فيديو (٣) إنهزام المغول في موقعة عين جالوت

(١) المقریزی: السلوك، ج١، ق١، ص٤٣٠، ٤٣١؛ ابن كثير: البداية والنهاية: ج١٣، ص١٢٢، ١٢٣؛ أبوالمحسن: النجوم الزاهرة، ج٧، ص٧٩.

(٢) المقریزی: المصدر السابق، ص٤٣١.

(٣) أحمد شلبي: التاريخ الإسلامي والحضارة، ص١٩٨.

(٤) سعيد عاشور: الظاهر بيبرس، ص٣٣.

نتائج موقعة عين جالوت:

فقد تُبَيَّنَتْ دعائم دولة المماليك في مصر والشام، كما كانت نهاية الدولة الأيوبية، كما أنها أنقذت بلاد الشام من الاحتلال المغولي، وتحول القوة الإسلامية من الدفاع إلى الهجوم، وسَحَقَ قوى العدو ومطاردته، بحيث تحطمت قواتهم بعد هذه الهزيمة التي لم تقع مثلها (١)، كما عَجَّلَتْ موقعة عين جالوت بزوال ما تبقى من الإمارات الصليبية (٢).

تقدم المظفر قُطْرُ حتى وصل دمشق، فدخلها ورَتَّبَ أمور بلاد الشام، وقرر الولاية والنواب، وعادت بلاد الشام إلى حُكْم الإسلام، ودخلت تحت حكم دولة المماليك منذ ذلك الحين، والمظفر قطز هو أول من مَلَكَ البلاد الشامية واسترجعها من ملوك التتار، وأعاد المظفر الطمأنينة للبلاد والعباد، ثم شَرَعَ في العودة إلى الديار المصرية، وغادر دمشق يوم الثلاثاء السادس والعشرين من شوال عام ٦٥٨ هـ / تشرين الأول ١٢٦٠م، وأثناء محاولته لصيد أرنبٍ في الصحراء تم اغتياله وقتله، فتولى السلطة الظاهر بيبرس.

لم تنته الحروب بين المغول والمماليك، بل وقعت بينهم عدة معارك، ففي عهد السلطان قلاوون هاجم المغول حمص، فأوقع بهم هزيمة نكراء، وفي عهد الناصر هاجموا دمشق واحتلوها، فالتقى بهم بالقرب من دمشق وهزمهم وأسَرَ منهم عشرة آلاف جندي، وعَقَدَ معهم صلحًا سنة ٧٢٢ هـ / ١٣٢٢م (٣).

وفي مطلع القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي، هاجم تيمورلنك بغداد وسار إلى حلب وحمص وبعليك ودمشق، ثم اتجه إلى آسيا الصغرى فالتقى بالعثمانيين، وأسِرَ بايزيد الأول سنة ١٤٠٢م، إلا أنه مات سنة ١٤٠٤م، ودَبَّ الخوف بين خلفائه، مما أتاح للمماليك استعادة شمال بلاد الشام.

وهكذا قُدِّرَ للعالم الإسلامي أن يواجه الغزاة مرةً أخرى، ولكن هؤلاء الغزاة كانوا قساة القلوب، متوحشين، دَمَّرُوا أكبر مدينة في العالم، وقضوا على مظاهر الحضارة في المشرق الإسلامي، وكانت نهايتهم في عين جالوت، وكان فلسطين وأرضها قد أَعِدَّتْ لتكون مقبرة للغزاة الطامعين.

(١) فايد عاشور: العلاقات السياسية بين المماليك والمغول، ص ٥٥، ٥٦.

(٢) الباز العريني: المغول، ص ٢٦٤.

(٣) المقريزي: السلوك، قسم ٣، ص ٩٣٨-٩٤٠.

تدريبات الفصل الخامس



حدد صواب أو خطأ العبارة التالية:

(١) هولوكو هو مؤسس الإمبراطورية المغولية:

○ صواب

○ خطأ

(٢) ظهر المغول كدولة في القرن الثاني عشر الميلادي وكانت عاصمتهم قره قورم:

○ صواب

○ خطأ

اختر الإجابة الصحيحة مما يلي:

(٣) عندما قدم هولوكو إلى بغداد كان يتولى الخلافة العباسية:

○ المستعصم بالله

○ المعتصم

○ المأمون

(٤) وقعت معركة عين جالوت:

○ عام ٧٨٠ هـ

○ عام ٦٥٨ هـ

○ عام ٨١٣ هـ

المصادر والمراجع

- ١- ابن الأثير: على بن الكرم، محمد بن عبدالكريم الشيباني (ت ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م) - الكامل فى التاريخ: بيروت، دار الكتاب العربى، سنة ١٩٦٧، بولاق، ١٢٧٤هـ، دار صادر، سنة ١٩٧٩.
- الباهر فى تاريخ الدولة الأتابكية: تحقيق عبدالقادر طليمات القاهرة، سنة ١٩٦٣.
- ٢- ابن أبى أصيبعة: «موفق الدين أبوالعباس أحمد بن القاسم الخزرجى (ت ٦٦٧هـ / ١٢٧٠م):
- عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، بيروت: دار الفكر، القاهرة، سنة ١٣٧٦هـ / ١٣٠٠هـ.
- ٣- أرنولد، سيرتوماس:
- الدعوة إلى الإسلام: ترجمة حسن إبراهيم حسن وزملاؤه، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية سنة ١٩٥٧.
- ٤- أحمد، حمدى حافظ: الدولة الخوارزمية والمغول. القاهرة: دار الفكر العربى، سنة ١٩٤٩.
- الشرق الإسلامى قبل الغزو المغولى. القاهرة: دار الفكر العربى، سنة ١٩٥٠.
- ٥- أمين، حسين: تاريخ العراق فى العصر السلجوقى. بغداد: مطبعة الارشاد: سنة ١٩٦٥.
- ٦- الأصفهانى، عمادالدين: تاريخ دولة سلجوق. بيروت: دار الآفاق، ط ٣، سنة ١٩٨٠.
- ٧- بركلمان، كارل: تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة: نبيه فارس، منير بعلبكي. بيروت: دار العلم للملايين، ط ٤، سنة ١٩٦٥.
- ٨- برجاوى، سعيد أحمد: الحروب الصليبية فى المشرق. بيروت: دار الآفاق، سنة ١٩٨٤.
- ٩- بيضون، د. إبراهيم: التاريخ السياسى للدولة العباسية.
- ١٠- أبو بدر، شاكراً أحمد: الحروب الصليبية والأسرة الزنكية. بيروت: الجامعة اللبنانية، سنة ١٩٧٢.
- ١١- البيطار، أمينة: تاريخ العصر الأيوبى. دمشق: جامعة دمشق، سنة ١٩٨٢.
- ١٢- بروج، أنتونى: تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة أحمد غسان سبانو، دمشق: دار قتيبة، سنة ١٩٨٥.
- ١٣- النكريتى، محمود ياسين: الأيوبيون فى شمال الشام والجزيرة، بغداد: وزارة الثقافة، سنة ١٩٨١.
- ١٤- التميمى، رفيق: الحروب الصليبية. يافا: دار الظاهر، سنة ١٩٤٧.

المصادر والمراجع

- ١٥- الجميلي، رشيد: دولة الأتابكة في الموصل. بيروت: دار النهضة، سنة ١٩٧٠.
- ١٦- حسن، حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، سنة ١٩٧٣.
- ١٧- حتى، د. فيليب: تاريخ العرب المطول. بيروت: دار الكشاف، ط سنة ١٩٥٣، ط ٤ سنة ١٩٦٥.
- ١٨- حيدر، محمد علي: الدويلات الإسلامية في المشرق. القاهرة: عالم الكتب، سنة ١٩٧٤.
- ١٩- حسنين، عبدالمنعم محمد: دولة السلاجقة. القاهرة: مكتبة الانجلو المصرية، سنة ١٩٧٥.
- ٢٠- حبش، د. حسن: نور الدين والصلبيون. القاهرة، سنة ١٩٤٨.
- ٢١- خليل، د. عماد الدين: المقاومة الإسلامية للغزو الصليبي. الرياض: مكتبة المعارف، سنة ١٩٨١.
- ٢٢- ابن خلكان، شمس الدين، أحمد بن محمد (ت ٩٨١هـ / ١٣٢٤م):
وفيات الأعيان وأنباء الزمان، (تحقيق د. إحسام عباس) بيروت: مطبعة القاهرة، وبولاق.
- ٢٣- خليفة، حسن: الدولة العباسية، قيامها وسقوطها. القاهرة: المكتبة الحديثة، سنة (بلا).
- ٢٤- الدوري، د. عبدالعزيز: دراسات في العصور العباسية المتأخرة. بغداد، سنة ١٩٤٥.
- ٢٥- دونالد رولبر: إيران ماضيها وحاضرها. ترجمة: عبدالمنعم حسين.
- ٢٦- الدهان، د. محمد سامي: الناصر صلاح الدين الأيوبي. القاهرة: الدار المصرية، سنة ١٩٦٥.
- ٢٧- زكار، د. سهيل: الحروب الصليبية (مجلد، شهود عيان)، دمشق: دار حسان، سنة ١٩٨٤.
- مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية. بيروت: مؤسسة الرسالة، سنة ١٩٧٢.
- ٢٨- سيد الأهل، عبدالعزيز: أيام صلاح الدين. بيروت: المكتب التجاري، سنة ١٩٦١.
- ٢٩- سرور، د. جمال الدين: تاريخ الحضارة الإسلامية. القاهرة: دار الفكر العربي.
- ٣٠- سعيد، أحمد: تاريخ الدول الإسلامية والأسرة الحاكمة. القاهرة (بلا).
- ٣١- السيوطي، جلال الدين بن عبدالرحمن (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م): تاريخ الخلفاء، تحقيق محي الدين عبدالحميد. القاهرة: المكتبة التجارية، سنة ١٩٦٩.

المصادر والمراجع

- ٣٢- سميل، د. سى: الحروب الصليبية (ترجمة سامى هاشم). بيروت: المؤسسة العربية، سنة ١٩٨٢.
- ٣٣- شلبي، د. أحمد: موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ط٧، سنة ١٩٨١.
- ٣٤- شعبان، د. محمد عبدالحى: الدولة العباسية والفاطيون. بيروت: الأهلية للنشر والتوزيع، سنة ١٩٨١.
- ٣٥- ابن شداد، كمال عزالدين عبدالله بن محمد (ت ٦٣٢هـ / ١٢٣٤م): النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية. (سيرة صلاح الدين الأيوبي)
- ٣٦- أبو شامة: عبدالرحمن إسماعيل. كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين النزرية والصلاحية، تحقيق د. محمد حلمى أحمد، القاهرة، سنة ١٩٥٦.
- ٣٧- صبرة، عفاف سيد: دراسات فى تاريخ الحروب الصليبية. القاهرة: دار الكتاب الجامعى، سنة ١٩٨٥.
- ٣٨- صفوط، د. أنطون خيل: الدولة المملوكة، بيروت: دار الحداثة، سنة ١٩٨٠.
- ٣٩- ابن طباطبا، محمد بن على (ت ٧٠٩هـ / ١٣٠٩م): الفخرى فى الآداب السلطانية، القاهرة، سنة ١٣٢٦هـ، بيروت: دار صادر ١٣٨٩هـ / ١٩٦٦م.
- ٤٠- الطبرى، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ): تاريخ الرسل والملوك، وتاريخ الطبرى. دار المعارف، سنة ١٩٦٠- ١٩١٠م.
- ٤١- عاشور، سعيد عبدالفتاح: الحركة الصليبية (مجلدان) القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ط٢، سنة ١٩٧١.
- الناصر صلاح الدين (سلسلة أعلام العرب عدد ٤١) القاهرة: الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر، سنة ١٩٦٥.
- ٤٢- عاشور، د. فايد حماد: جهاد المسلمين فى الحروب الصليبية، بيروت: مؤسسة الرسالة، سنة ١٩٨١م.
- ٤٣- ابن العديم، كمال الدين أبى القاسم عمر أحمد (ت ٦٦٠هـ / ١٢٦١م)
- زبدة الحلب، ج٢، ٣، تحقيق د. سامى الدهان، بيروت، سنة ١٩٦٨.
- ٤٤- العيىنى، أبونصر محمد بن عبدالجبار (٤٢٨هـ / ١٣٦٠م):
- تاريخ اليمنى، القاهرة، سنة ١٢٨٦هـ.
- ٤٥- العرينى، سيد باز: المغول. بيروت: دار النهضة، سنة ١٩٨٨.
- ٤٦- عبدالرؤوف، عصام الدين: الدولة المستقلة فى الشرق. القاهرة: دار الفكر، سنة ١٩٧٠.
- ٤٧- العبود، نافع توفيق: الدولة الخوارزمية. بغداد: مطبعة جامعة بغداد، سنة ١٩٧٨.

- ٤٨- الغامدى، سعيد بن محمد: صلاح الدين والأيوبيين: مكة المكرمة، المكتبة الفيصلية، سنة ١٩٨٥.
- ٤٩- غايبة، د. عبدالكريم: بيروت والأترك. دمشق، جامعة دمشق، سنة ١٩٦٠.
- ٥٠- القزويني: عبدالله زكريا الأنصارى (ت ٦٢٨هـ / ١٢٨٣م):
- آثار البلاد فى أخبار العباد. جوتيمين، سنة ١٨٩٨، بيروت، دار صادر، سنة (بلا).
- ٥١- ابن كثير، عمادالدين إسماعيل (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م):
- البداية والنهاية. القاهرة: سنة ١٩٣٩، بيروت: مكتبة المعارف، سنة ١٩٧٧.
- ٥٢- لوبون، غوستاف لوبون: حضارة العرب (ترجمة عادل زعتر). القاهري:
الباب الحلبى، ج ٤١، سنة ١٩٦٤.
- ٥٣- متز، آدم: الحضارة الإسلامية، ترجمة محمد عبدالهادى أبوريدة. بيروت: دار الكتاب اللبنانى، ط ٤، سنة ١٩٦٧.
- ٥٤- أبوالمحاسن، جمال الدين أبوالمحاسن ابن تغرى بردى (ت ٧٨٤هـ / ١٤٧٠م):
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة. القاهرة: وزارة الثقافة، سنة ١٩٦٤.
- ٥٥- المعصيدى، خاشع. دسولى عبدالحميد، دريد عبدالقادر نورى: الوطن العربى والغزو الصليبي، بغداد، وزارة التعليم العالى، سنة ١٩٨٨.
- ٥٦- المسعودى، أبوالحسن على (ت ٢٤٦هـ / ٩٥٥م): مروج الذهب ومعادن الجواهر. بيروت: دار الفكر، ط ٥، سنة ١٩٧٣، القاهرة: ١٣٤٦هـ.
- ٥٧- ابن مسكويه، أبوعلی بن محمد (ت ٤٢١هـ / ١٠٣٠م): تجارب الأمم: تحقيق أحمد روز، القاهرة: سنة ١٩١٥.
- ٥٨- مشكور، محمد جواد: السلاجقة فى آسيا الصغرى. طهران، سنة ١٣٥٠هـ.
- ٥٩- النبراوى، د. فتحية: العلاقة السياسية الإسلامية وصراع القوى فى العصور الوسطى، القاهرة: مكتبة وهبة، سنة ١٩٨٢.
- ٦٠- ابن النديم، محمد بن إسحق (ت ٣٧٨هـ / ٩٨٨م): الفهرست، بيروت: دار المعرفة، سنة ١٩٧٨.
- ٦١- النرشحى، أبوبكر محمد بن جعفر (ت ٣٤٨هـ / ٩٥٩م): تاريخ بخارى عَرَبَهِ عن الفارسية: د. أمين بدوى، نصرالله الطراز، القاهرة: دار المعارف، ١٩٦٥.
- ٦٢- ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم (ت ٦٥٧هـ / ١٢٩٧م): مفرج الكرب فى أخبار بنى أيوب، تحقيق: د. جمال الشيال، القاهرة: سنة ١٩٥٣، ١٩٥٧.
- ٦٣- ياقوت، شهاب الدين أبو عبدالله الحموى الرومى (ت ٧٢٦هـ / ١٢٣٩م): معجم البلدان، القاهرة، سنة ١٩٠٦، بيروت: دار الكتاب العربى، سنة ١٩٨٠.

عن المؤلف



الأستاذ الدكتور صلاح سليم طابع أحمد أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية وعميد كلية الآداب بقنا - جامعة جنوب الوادي دكتوراه في التاريخ الإسلامي من كلية الآداب بقنا جامعة جنوب الوادي ٢٠٠٤م تقدير مرتبة الشرف الأولي. ماجستير في التاريخ الإسلامي من كلية الآداب بقنا جامعة جنوب الوادي ٢٠٠١م تقدير امتياز. ليسانس الآداب قسم التاريخ الإسلامي كلية الآداب بقنا جامعة أسيوط ١٩٩٠م تقدير جيد جداً.

في هذا الكتاب:

يقدم هذا الكتاب دراسة عن الدويلات المستقلة في المشرق الإسلامي عبر عصورها المختلفة، ويعرض تاريخ عدد من هذه الدويلات منذ ميلاد دولهم، وأهم الأحداث الداخلية والخارجية، وعلاقتهم بالخلافة العباسية.

للتواصل مع المؤلف

الموبايل: ١٠٠٦١٥٢٢٣٦

البريد الإلكتروني: Drsalah_saleem@yahoo.com